سلسلة رسائل العين
الرسالة الثانية

ربانية التعليم

عبد الله يوسف الحسن



ربانية التعليم

* الكتـــاب · ربانية التعليم .

* الكـــاتـــب : الشيخ / عبد الله يوسف الحسن .

* الطبـــعـــة : الثالثة .

* النـاشـــر : دار البشير للثقافة والعلوم طنطا .

* التـــوزيع : دار البشير طنطا أمام كلية التربية النوعية

☎ 322404 ـ 356663 فاكس 228277

* التجهيز الفنى : شركة الندى للتجهيزات الفنية

المحلة الكبرى ص . ب / 265

* الإيداع القانونى : 1994/2450 م

* الترقيم الدولى : x - 78 - 5065 - 977 I . S . B . N

سلسلة رسائل العين

ربانية التعليم

عبد الله يوسف الحسن

هذه العين

دفّاقة ، صافية .. هي عيننا ..

كلُ معنىً جميل ، وكلُ إشارة خير .. حواها لفظ « العين » ....

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ..
ومن ثمّ ، تفاؤلا : كانت هذه العين ...

لعيننا شبه **بماء العيون** ، فإن رسائلها تروى قلوبنا قد يعتريها الجفاف ، فتنتعش بعد ظمأ وتسقي ساحات العمل ، فتنشط وتنتج

ولماء العيون صفاء ، ويتفجر رقراقا غير ملوث ، وعين الفكر هذه تأتيك بصفاء مصادر الإسلام الأصيلة ، غير مشوبة بفكر أرضي أو حثالة بدعية .

والعين : نبيل القوم ، ومقدمهم ، وشريفهم ، وإنما تصدر هذه العين لنبلاء الدعاء ، ومن هم مظنة الفضل والعقل .

والعين : الذهب ، وكل معدن نفيس ثمين ، وأجود كل شيء وأحسنه وخياره ، وهي كذلك مباحث هذه العين واجتهاداتها ، وسيبقى فقه الدعوة هو الأنفس ، والحوار فيه هو الأثمن .

ثم هي عينك الباصرة ، تنظر بها واقعك ، فتحلل وتصف وتعلل ، وتعرف بها الدرب فتقتحم ، أو تكون الدليل ..

والعين : الرقيب ، والرائد ، والطليعة ، فهي عينك على الخصم تجس لك تحركه وسوء نيته .

ولها أيضا مع عين الخليل بن أحمد الفراهيدي نسب ، فكما أراد أبواب معجمه مفاصل لتوزيع المعاني أو التقاطها عبر تشكيلات الحروف : ستكون أبواب هذه العين ناشرة لحِسان المعاني ، جامعة لشتات الاجتهادات الجزئية ، من أجل وعي إسلامي ، عبر لغة فقهية تعلم الفصاحة كلّ داعية خليل .

ومن معاني **العين** : المال ، والجماعة ، والشمس ، والجديد ، والحديدة في رأس آلة الحراثة ، كل ذلك وما قبله في لسان العرب قد بيّنه ابن منظور وكذلك أفكار عيننا ، هي أغلى مال يتموله داعية ، من خلال اجتهاد **جماعي** واضح وضوح **الشمس** يستنبط من التراث القديم بنظرة **جديدة** في غير ما تقليد جامد ، ويعلم الدعاة طريق الجهاد بآلة **الحديد** .

كل ذلك لنا ، ثم نطمع بمزيد ، من ربّ كريم ، نرجوه أن يقسم لنا حظاً مهما كان صغيرا من وعده للكريم عليه السلام ﴿ **فإنك بأعيننا** ﴾ ... ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾ .

فامض راشداً مع رسائل **العين** التي ستبلغ المائة إن شاء الله ، واجمعها يجتمع لك فقه الدعوة ،

وإنه لنعم الزاد للماشي في درب ..... الإيمان .

﴿ عيونُ الأعيانْ ﴾

إن دعاة الإسلام هم أعيان الجيل الحاضر ، لا جدال ، بما وُهبوا من همة تحرص على الإصلاح ، وتجرّد يعيد ضرب المثال .

ولهم تصدر هذه السلسلة .....

فلهم مع كل إشراقة جديدة .... تحية .....

إن هدف « رسائل العين » يتركز في كشف الآفاق الرحبة لفقه الدعوة ، وتجارب العمل الإسلامي ، وأنماط معاناة المربين ، ووضع كل ذلك بين يدي شباب الصحوة الإسلامية ، تعليماً لهم وتمكينا .

لكن الأبعاد الحضارية مكملة لكل ذلك ، لأنّا نعيش حياة الانفتاح من جهة ، ونواجه حضارة مغايرة تَتَدَسّس بهدوء ولباقة أو تجاهر بالغزو ، من جهة أخرى ، فكان لابد للداعية المسلم أن يسعى نحو الثقافة الشمولية ، وأنواع العلوم والفنون . ليعلو فوق التيار ، مسيطراً مهيمنا ، وكان على هذه السلسلة أن ترافقه في دربه الحضاري هذا ، تعين و تستكشف له ، وتُنبيه الخَبر ، ووكيلها في ذلك : محمد أحمد الراشد ، ينتقي ويختار ، إن لم يكتب ويعقب ، ومعه على قدم سواء : الدكتور عبد الله يوسف الحسن ، يكتب وينقح ويطور ويوسع الدوائر .

على أن الاستقصاء في إيراد كلام الفقهاء ومراجع نصوصهم ليس من وسيلة هذه الرسائل، وإنما هو الاستئناس والتبرك بأقوال السلف، ولا نرى أن يلزمنا داعية ما ألزمته الجامعات أصحاب البحوث، وإنما تهتم نحن بالتعليل والقياس والتأويل، مما يوجب على الممارس التأمل في عباراتنا على ضوء واقع العمل الإسلامي وأن يدرك المعاني التي نذهب إليها من خلال الإشارات والمجاز.

فقرر أن تكون حسن المطالعة والاستيعاب، بمقابل ما ترجوه منّا من حُسْن الكتابة والاختيار، وكرّر المطالعة: يؤذن لك بمزيد فهم، وقدّم نسخاً أخرى من هذه الرسائل هدية إلى إخوان لك: تنتشر الفوائد، ويروج مذهبك في الإصلاح، ويقتنع بمثل قناعاتك عدد أوفر، فتكون النتيجة أقرب ......

ثم سبح معنا رباً هادياً .... ونصيراً.

ربانية التعليم



إن (**ربانية التعليم**) أحد أهم المفاهيم التربوية في عملية التدريس عموماً ، وفي مجال التعليم والتربية الدعوية بشكل خاص ويعنى هذا المفهوم أن عملية التعليم يجب أن تكون بحكمة ، وتتضمن التدرج فى تدريس صلب العلم قبل فروعه ، ولا يقوم بهذا العمل إلا الفقهاء الحكماء .. والمربون الوعاة .

وربانيّة التعليم لا تتم بتبليغ الفقه المجرد فقط ، وإنما باتخاذ الوسائل الحكيمة ، ووفق أفضلها أيضاً ، ومنها : إعطاء صغار العلم قبل كباره ، وقد أخذ هذا المعنى التربوى اسمه من أحد معانيه الخاصة الواردة فى قول ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ كما فى كتاب العلم من صحيح البخارى :

(كونوا ربانيين حكماء فقهاء .

ويقال : الرباني الذى يُربي بصغار العلم قبل كباره) .

وصفة الربانية قد تكون نسبة إلى (الرب) عز وجل أو إلى (التربية) . وإطلاقها على هذا المفهوم التربوي من باب إطلاق الخاص على العام .

وقد سبق الإسلام ـ بهذا الإدراك الواعي ـ أحد أهم مسائل وأسس التربية المعاصرة .

ألا ترى أن المناهج في المراحل الدراسية المتعددة يسبق بعضها بعضاً ، والمساقات الجامعية ينبني بعضها على بعض ، ولا يسبق تدريس بعض الأجزاء أجزاء أخرى ! فكل فن ترتبط أجزاؤه وفق نسق منطقي . والعلم بشموليته : تتسق فنونه بعضها ببعض ، بحيث لا يتقدم المبهم الدقيق على الواضح السهل . ولا النتيجة على المقدمة ، ولا الأهم على المهم . ولا يتقدم صعب على سهل ، وغير ذلك ، وقد أوضح ابن حجر شمولية معنى صغار العلم وكباره فقال : (والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله . وبكباره ما دقّ منها . وقيل : يعلمهم جزئياته قبل كلياته ، أو فروعه قبل أصوله ، أو مقدماته قبل مقاصده) [1] .

إن الذي يحدو إلى توضيح هذا المعنى التربوي في مجال العمل الإسلامى الدعوي ـ رغم معرفته في عالم التدريس والتربية المنهجية ـ هو ما يظهر أحياناً من محاولة بعض الدعاة والمربين أو الخطباء تزويد الناشئة أو من هم دون المستويات الملائمة بكمية هائلة من المعلومات الشرعية أو الدعوية . أو اختيار ما لا يناسبهم من

(١) فتح البارى ١ / ١٦٢ .

ناحية المعاني ، وقد يكون الأمر في غالب الأحوال رغبة المربين بالحصول السريع على طبقة متقدمة من الدعاة ، أو تبليغ أكبر كمية من المعلومات بأقصر الطرق ، وقد تكون ـ في أحيان قليلة كما نرجوا ـ بسبب حب المربي لنوع من الوجاهة والرئاسة ، فيحب الظهور بمظهر العالم المتمكن ، أو لأجل مباهاة الأقران ، فيسارع إلى تبليغ المعلومات الوافرة والمتقدمة .

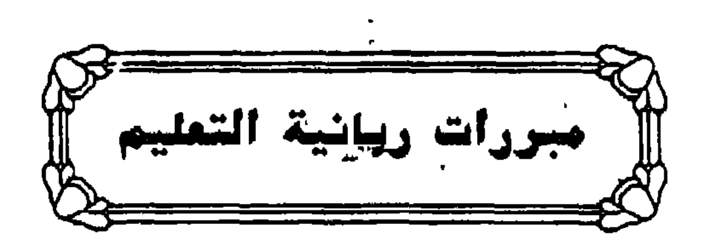
كما أن الناشئة أو طبقات الدعاة المختلفة هي الأخرى تتطلع إلى الاستزاده من كثرة المعلومات والتشوق إليها دون الاستفادة العميقة منها ، أو دون امتلاك الاستعداد الكافي لهضمها وإدراكها وتشوفهم ـ بتجاوز العلوم الأساسية ـ لمعرفة غيرها من شوارد المعرفة ، أو خصوصيات المسائل ، وقد يكون الدافع لهؤلاء ـ في بعض الأحيان ـ إخلاصهم للدعوة ومحاولة الارتقاء السريع بمستواهم ، كما قد يكون أيضاً ـ في أحيان أخرى ـ محاولة منهم للاستشراف الشخصي للتصدر ، أو حباً في الاستطلاع الفكري ، أو طمعاً في التدخل بما لا يعنيه من أجل إشباع غريزة التطلع .

وقد لا يقتصر الأمر على الشيوخ والمربين من جهة ، أو الجدد وطبقات الدعاة من جهة أخرى بل قد يتجاوز الأمر للحديث بكبار العلم ومهماته ـ أحيانا ـ إلى المجالات العامة ، والمنتديات المفتوحة وأمام جماهير المسلمين ، بل وخارج إطار العاملين للإسلام .

إن الالتـزام بهـذا المفهـوم يجب أن يكون واضـحاً ، ومقـرراً وسط الجماعـة المؤمنة ، فهو ليس كتمـاً للعلم ، ولا محاولة للتمـييز بين طبقـات الدعاة ، ومـا هو بالاستعـلاء على الناس ، بل هو منهج رباني يخدم المصلحة الدعوية ويقي من لأواء الفتن ، ومصارع المحن ويحقق قواعد الاستقرار الإداري للجماعات الإسلامية .

ولابـد من التوضيح هنا أن ما نقله ابن حجر في كلامـه السابق حـول (الفروع قبل الأصول) ليست على إطلاقها ولهذا فسوف توضح فيما بعد إن شاء الله تعالى .





مبررات ربانية التعليم

قبل الشروع بالشرح التفصيلي لمسائل ربانية التعليم ، نوضح أهم مبررات هذا المفهوم :

من أجل عدم الوقوع في المفسدة لقصر الفهم :

وقد امتنع الرسول ﷺ عن هدم الكعبة ثم بنائها حتى لا تظن قريش أنه بناها لينفرد بالفخر عليهم ، فترك المصلحة خوفا من الوقوع في المفسدة ، واعتبر حديثه ـ هذا ـ من أعمدة أدلة الموازنة بين المصالح ، واستنبط منه البخارى مفهوم ربانية التعليم ، ولابد من ضرورة منع بعض العلم خوفاً من الوقوع بما هو أشد لقصور الفهم عن ذلك .

فترجم البخاري لحديث (عدم هدم الكعبة ثم بنائها) بقوله (باب : من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه) [1] .

---

(١) فتح البارى ١ / ٢٢٤ .

عدم إضاعة العلم :

إذا أن كل فن له أوائل تقود إلى أواخره ، ولهذا فلابد من أخذ الأوائل قبل الأواخر ، والفروع قبل الأصول ، وذلك في العلم الواحد ، والفن الواحد ، إذا ما كانت كل من الفروع والأصول على مستوى واحد من صعوبة الفهم ، وعلى درجة واحدة من الأهمية ، أما عكس العملية فيقود إلى إضاعة العلم .

(... واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها ، ومداخل تفضى إلى حقائقها ، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها ، لينتهي إلى أواخرها ، وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها ، ولا يطلب الآخر قبل الأول ، ولا الحقيقة قبل المدخل ، فلا يدرك الآخر ، ولا يعرف الحقيقة ، لأن البناء على غير أسٍ لا يُبنى والثمر من غير غرس لا يجنى)[١] .

أما إذا كانت الأصول أهم من الفروع فالابتداء بها أولى ، كأمور العقيدة وصفات الخالق وأسمائه ، فهي أولى من إدراك مسائل الفقه وأمور الخلاف ، وكذلك إذا كانت أصول فن ما أسهل من فروعه ، فالابتداء بها أجدى وأنفع ثم ينتقل إلى التفصيلات الأصعب بعد ذلك .

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى / ٥٥ .

وبذلك يُتحول ـ في بعض الأحوال ـ إلى ضرورة الأخذ بالأصول قبل الفروع ، وفي كل من الحالتين يكون الاستبدال إضاعة للعلم ، وتجاوزاً لمفهوم الربانيّة ... وسيأتي مزيد من إيضاح لذلك .

عدم التنفير من العلم والتخبط به :

ولهذا المعني أشار الغزالي ، واعتبرها من وظائف المربي والمعلم فحدد ذلك بقوله : (.... أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه مالا يبلغه عقله ، فينفره ، أو يخبط عليه عقله ... ولذلك قيل : كِلْ لكل عبدٍ بمعيار عقله ، وزِن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار) [1] .

إذ أن طالب العلم إذا ما أخذ علماً لا يستوعبه ، أو أن حدود تجاربه الحيوية وطبيعته النفسية لا تستطيع إدراكه فإنه يؤدي به إلى عدم توازنه ، بل وإلى انحرافه ، ولذلك فإن الفلسفة والمناظرات الكلامية أو بعض أمور المنطق قادت بعض طلبة العلم إلى الشطط ، بل إلى الانحراف عندما لم يتم بناؤهم الفكري ولم يستكملوا علم الشرع ، كما حصل لأمثال ابن سينا وابن رشد ، مما اضطر بعض العلماء ـ لوجود هذه الظاهرة ـ إلى تحريم دراسة المنطق ، كابن

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٥٧ .

الصلاح وغيره ، بينما صار المنطق والكلام سلاحاً ضد أعداء الإسلام بيد جهابذة العلماء كابن تيمية والغزالي ــ رحمهما الله تعالى ــ ، ولذلك فقد يكون في معرفة القليل من الجاهلية انحراف أو ضلال ، وفي معرفة الكثير منها ــ عند فهم القواعد والأصول ــ مزيد إيمان ويقين .

عدم الوقوع في الترف الفكري :

إذ أن تعلم المبتدئ جملة من العلوم التي لا يعمل بها ، ولا يستفاد منها ، تجعل منه شخصا نظريا ، فتؤدي الظاهرة عند توسعها إلى عيب كبير في صفوف الدعاة ، إذ يتحول الداعية عندئذ إلى أشبه بباحث نظري يبحث في الكتب وحسب ، فيفلسف الأحداث دون استيعاب ، وبالتالي يحصل الفتور في العمل ، والضعف في الإيمان ، وتصبح بضاعته مجموعة من الأحاديث النظرية والمجادلات ، وتكون متعته في المباحث النظرية والمطالعة المجردة ، دون تحمل عبء المشاكل ، ومشقة المخالطة ، ولو ظل على هذا لهان الأمر ، بل قد يتحول الداعية ــ كما تشهد التجارب ــ إلى كاتب يبرر الانحراف ، ويفلسف الأخطاء ، ويدافع عن الفتن ، وينقد العمل الجاد ، بل وقد يكبر الأمر الصغير ، ويهون الشأن الكبير ، وكل ذلك لأنه أسير تأملاته النظرية ، وثقافته غير المتوازنة .

الأمان من الخطأ :

فإن كثرة الحديث تورد كثرة الخطأ والالتباس ، وفي القلة أمان من ذلك (وكثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً) ، وقد قالت العرب (من كثر كلامه كثر سقْطه) ، كما أورد مسلم في مقدمة صحيحه قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع) . .

وقد علق الإمام النووي على ذلك بقوله عن هذا الحديث والآثار التي في الباب : (ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان ، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب ، فإذا حدّث بكل ما سمع فقد كذب ، لإحباره بما لم يكن .....) .

وكذلك : (إنه إذا حدث بكل ما سمع كثر الخطأ في روايته فترك الاعتماد عليه والأخذ عنه ....) [1] .

الابتداع في الدين :

ما دام الأخذ بهذا المفهوم مما نهى عنه الشارع ، فإن عدم الأخذ به من الابتداع في الدين ، لمخالفته الهدي النبوي ، وقد ذكر ذلك الشاطبي ضمن أنواع الابتداع فقال (... ومن ذلك التحدث

---

(١) شرح صحيح مسلم ١ / ٧٥ .

مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه ، فإنه من باب وضع الحكمة في غير موضعها ، فسامعهـا إما أن يفهمها على غير وجهها ـ وهو الغالب ـ ، وهو فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق ، والعمل بالباطل .

• إما لا يفـهم منها شـيئاً ، و هـو أسلم ، ولكـن المتحـدث لـم يـعط الحكمة حـقها مـن الصون ، بـل صـار في التحدث بـها كـالعابث بعمة الله ....) [1]

انفضاض الناس :

إن الإكثـار من الحديث ، ومـا قد يجره من ملل عـلى السامع يجعل الناس تاركين للعلم وراءهم ، وبالتالي يفقد العالم هيبته .

والعلم كعروض التجارة ، ترداد الرغبة فيها عند القلة ، وليس المقصود حجر الناس عن العلم ، وإنما من أجل زيادة حرصهم عليه حتى لا يكون من كثـرته وإشاعته تزهيداً للناس فيـه ، وابتعادهم عنه . وفي حكمة لقمان قوله : (إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار ، وإن العـالم الأخرق يطرد الناس عن علمه بالهذر والإكثار) [2] .

---

(١) الاعتصام للشاطبى ٢ / ١٣

(٢) عيون الأخبار ٢ / ١١٢

عدم التوازن بين العلم والعمل :

وليعلم أن عدم التوازن بين العلم والعمل مفسدة أيضاً . وهي كنمو أحد جناحي الطائر وضمور الجناح الآخر ، فيكون الصعود والتحليق إيذاناً بالسقوط من مرتفع أعلى ، فيؤدي إلى احتمالية أكبر في أن يلقى حتفه ويتهشم ، وتدل تجارب الحكماء قديما وحديثا على كراهية عدم التوازن بين المنطق والعقل ، وقد قال ــ من قبل ــ سليمان بن عبد الملك : (زيادة منطق على عقل خُدْعة ، وزيادة عقلٍ على منطقٍ هُجْنة) [1] .

بل إن زيادة المنطق ، وحلاوة اللسان ، وعذوبة العلم نهايتهن مريعة إذا لم يزينها عقل ، وتحدها تجارب ، ويدركها عقل واعٍ يحدد مواقع الكلم ، ومواطن اللفظ ، فيختار الحديث المناسب للمجالس المناسبة ، وينتقي أطايب الكلام على قدر الرجال ... وقد قال حكيم العرب الأحنف بن قيس ــ رحمه الله: ــ (حتف الرجل مخبوء تحت لسانه) [2] .

وحتى يصبح مفهوم الربانية واضحاً ، لا بد من التوسع في ذكر بعض آفاق هذا المفهوم ، وما قد يتضمنه ، من تقديم بعض العلوم على بعض ، أو أجزاء فن ما دون أجزائه الأخرى ، أو تقديم خاصية قبل غيرها ، وما قد يرتبط بتدريس العلم وتعليم المعرفة من أمور ملازمة .

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٢٢ .

(٢) عيون الأعيان ١ / ٣٣٠ / ٣٣١ .



آفاق الربانية

ومن هذه الآفاق :-

(أ) الجزئيات قبل الكليات :

والمقصود بهذا ما ورد في كتب الفقه من مسائل يطالب المكلف بفعلها أو تركها ، إيجاباً أو استحباباً ، وقد أوردت الشريعة أدلة تلك المسائل ، ثم جاء العلماء بعد ذلك ، واستنبطوا من هذه الجزئيات مجموعة قواعد كلية قد تتخلف آحاد الجزئيات عنها ، وصارت معرفة هذه الكليات طريقاً لضبط الجزئيات ، ولكنها تظل غير صالحة لقيام التكليف عليها ، فالمسلم مكلف بفروع الشريعة ، وهي التي سيحاسب عليها في الآخرة ، ومعرفتها ـ إذن ـ لابد منها للمكلفين ابتداءً ، أما الكليات فلابد للعالم من إدراكها وفهمها بعد فهم الجزئيات التي قادت إلى التقعيد كي يمكن له التدرب على الاستنباط ، والقياس ، ثم الاجتهاد في الفروع المستحدثة .

وكذلك فإن الشريعة لها مقدمات لابد للمكلف من معرفتها والعمل بها ، ثم يحاسب بمقتضاها ، ولكن من خلال الاستقراء لمقدمات الشريعة يتبين أن لها مقاصد وحكماً وعللاً ، وأن الله تعالى يشرع لحكمة وعلة ، والشريعة تحفظ العقل والمالَ والنفس

وغيـر دلك من مصـالح العبـاد في المعاش والمعـاد ، ولكن المكلف يبقى محاسـباً على المقدمات دون المقاصد ، ويـبقى التكليف مبنيا عليه حتى دون معرفة المقاصد ، بينما تظل معرفة المقاصد جزءاً من علم المجتـهد للبناء عليه ، والقيـاس وفقه ، ثم يكون الاجتـهاد وفق مقاصد الشـريعة ، وكذلك يمكن للمكلف معرفـة المقاصد والعلل زيادة له في يقينه ، وتعميقاً في إدراكه .

ونضرب مثلاً على هذا المنهج أيضـاً بأصول الفقه الذي دُوّن كعلم تالٍ للـفقه ، فـالفقه الحنفي على وجـه الخصـوص بني جملة وتفصـيلاً على فروع الفـقه ، فأصبح رغم أصوليته تابعاً للفـقه ، وأصـول المذاهب الثلاثة الأخـرى رغم توسـعهـا وفقـاً لمناهج علم الكلام إلا أنها لم تنضج إلا بواسطة تطبيق الفروع الفقهية المستندة على الأدلة ، وبقي الأصول علمـاً لابد منه للمجتهدين بينمـا الفقه علم سـائر المكلفين ، وقواعـد الفـقه مـا هي إلا مثل آخـر إذ أنه لـم يتبلور إلا في الـقرن السابع ، واسـتفاد منه العلـماء ، ولكن معـرفة الفروع تظل سابقة عليه في ضرورة تعلمها كما كانت سابقة عليه زمـاناً ، رغم أنهـا تجمع العـديد من الفـروع ، وتسـهل حـفظهـا وإدراكها .

ولهذا فـإن المقدمات قبل المقـاصد ، والجزئيات قـبل الكليات في أمور الشـريعة عمـوماً ، وفي مـسائل الفقـه خصوصـاً ، وكلا

الأمرين داخلان في قاعدة الفروع قبل الأصول . أما فيما سوى ذلك فيما لوكان الأصل صلب العلم والفرع من هوامشه ، أو أن الأصل يبنى عليه الثواب والعقاب ، والفرع تبع له ، فإن القاعدة الأصلية تظل (الأصول قبل الفروع) ، كما ستبينه القاعدة التالية

(٢) الأصول قبل الفروع :

وهذا مبدأ واضح وضروري ، فتعلم أصول الشريعة لابد منه قبل فروعها ، وأرفع الأصول : أصل العقيدة ، كمعرفة الباري تعالى وأسمائه وصفاته ، والإيمان به وبأنبيائه ورسله ، ودون معرفة ذلك فالعمل يصيبه الإحباط ، ولذلك قال السلف : العلم قبل العمل ، وترجم الإمام البخاري لهذا المعنى فقال : (باب : العلم قبل القول والعمل ، لقول الله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فبدأ بالعلم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء) [(١)]

بينما الفقه وفروع الشريعة تبع لذلك ، وكذلك في الفن الواحد ، ففي الفقه مثلاً معرفة ما تصح به العبادة أولى بالمعرفة من سنن العبادات وزوائدها ، وهكذا .

ولهذا نرى بعض الصحابة استشهد في المعارك ، وهم لا يعرفون بعد من جزئيات الشريعة إلا معني (لا إله إلا الله) ، كما

---

(١) فتح الباري ١ / ١٦٠

أن كلمة التوحيد ـ كما يحصل في الجهاد ـ تعصم دم المرء . وذلك لضرورة تقديم فهم الإيمان إجمالاً ، وبعد دخول الإنسان في دين الله تعالى ، يبدأ بالاستفصال عن الأحكام التى تتضمنها كلمة التوحيد .

وحتى في إطار الأدب نجد أن العملية التعليمية تتخذ هذا المفهوم التربوي ، فلا ينتقل المدرس إلى علم الهوامش وتعليقات العلماء ، وزوائد الخلان ، ونوادر الظرف حتى يستكمل أصول العلم والمعارف ، ثم لا بأس عليه من الانتقال .

ونكتفي من ذلك ببعض ما أشار إليه الجاحظ حيث يقول : (ولا تلتمس الفروع إلا بعد إحكام الأصول ، ولا تنظر في الطُرف والغرائب ، وتؤثر رواية الملح والنوادر ، وكل ما خفّ على قلوب الفُرّاغ وراق أسماع الأغمار إلا بعد إقامة الحدود ، والبصر بما يثلم من ذلك العمود ، فإن بعض من كلف برواية الأشعار بدأ برواية أشعار هذيل قبل رواية شعر عباس بن الأحنف .. وناس من أصحاب الفتيا نظروا في العين والدَّين قبل أن يرووا الاختلاف في طلاق السنة ....) [1] .

والعمود من علم الشريعة ما كان المكلف محتاجاً إليه بذاته ،

---

(١) البرصان والعرجان للجاحظ / ٣ .

ثم ما يحتاج إليه الناس ، في عقيدتهم أولاً ثم عباداتهم ثم ما يصحح أمور معاشهم ، ثم الانتقال إلى العادات ، ثم يزيد في معرفته ما يشاء من زيادة في دليل ، أو تحقيق لمسألة ، أو إكثار لموارد خبر .

وما ينطبق في المجال النظري ينطبق على السلوك أيضاً ، فمن الدعاة من يطيع في صغار الأمور دون كبارها ، أو ما اعتاد عليه دون ذي الكلفة ، أو ما يتناسق مع الهوى دون ما يغلبه الهوى . وقد قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ : (رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش النجاسة ولا يتحاشون عن غيبة ، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت ، في أشياء يطول عدها من حفظ فروع وتضييع أصول . فالله الله في تضييع الأصول ، ومن إهمال سرح الهوى ، فإنه من أهملت ما شيتُه نَفشتْ في زروع التقى)[1]

وللتمييز بين قاعدتي (الأصول قبل الفروع) ، وما سلف ذكره من أحوال استثنائية : أنه في الفن الواحد ، وعند تساوي أصوله وفروعه في الفهم ، تكون الفروع قبل الأصول ، ويمكن الاستشهاد بقاعدة شرعية يسهل استقراؤها في الكثير من الشرائع والفرائض والتوجيهات القرآنية ، ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه

(١) صيد الخاطر / ١٥٦ .

الله ــ عند الحديث عن التدرج في تحريم الخمر بقوله (عندما يتعلق الأمـر أو النهي بقـاعـدة من قواعـد التـصـور الإيماني ، اي بمسـألة اعتـقادية . فـإن الإسلام يقـضي فيـها قـضاءً حـاسمـاً منذ اللحظة الأولى .. ولكن عندمـا يتـعلـق الأمـر أو النهي بعـادة وتقليـد ، أو بوضع اجـتماعي مـعقـد ، فإن الإسلام يـتريث به ، ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ويهيئ الظروف الواقعـية التي تيسر التنفيذ والطاعة .

فعندما كانـت المسألة مسألة التوحيـد أو الشرك ، أمضى أمره منذ اللحظة الأولى ، في ضـربة حازمـة جازمـة ، لا تردد فيـها ولا تلـفت ، ولا مـجامـة فيـها ولا مـساومـة ، ولا لقاء في منتـصف الطريق ، لأن المسألة هنا مسـألة قاعدة أساسيـة للتصور ، لا يصلح بدونها إيمان ، ولا يقام إسلام ....)[1] .

وتطبيقـاً لهذا المبـدأ فإن تعلـم العقـيدة قـبل الفقـه لابد منه ، وأصول الشريعـة كالقرآن والحديث ، قبل فـروع الخلاف والتوسع الفقـهي ، كما أن الـقاعدة تنطبق في الفن الـواحد ، فقـراءة القرآن وتلاوته قبل مـعرفة تفـسيره وتفـسيره العـام قبل الغوص بدقـائقه ، والغوص بدقائقه النافعة قبـل الخوض بالمتشابهات . أما في الحديث

---

(١) في ظلال القرآن ١ / ٢٢٩ .

فمعرفة الصحيح قبل الحسن ، والحسن قبل الخوض بمعرفة الضعيف ومعرفة متون الأحاديث الصحيحة والاطلاع على شروح البخاري ومسلم أولى من الانشغال بطرق الجرح والتعديل ، وتخريج الأسانيد ، وتعلم الفروض في الفقه أولى من دراسة السنن وأبواب الصلاة والزكاة مقدمة على معرفة الوكالة والشركة .

ويتبقى على الداعية معرفة أن ما تسلم به العقيدة ، وتصح به العبادة ، وقواعد الدعوة إلى الله تعالى : مقدم على الثقافة العامة وحديث السياسة ، ولابد كذلك من التذكير أن بعض هذه العلوم قد تتغير أفضليتها من شخص لآخر ، أو في زمان دون غيره ، فالداعية التاجر يكون تعلم الزكاة وقواعدها أوجب عليه من غيره وتعلم قواعد الجهاد لداعية يمارسه مقدم على علوم أخرى ، وتعلم الداعية الرد على الشيوعية في بلاد تناطح الشيوعية فيها الحركة الإسلامية مقدم على غيرها ، بينما تكون دراسة الشيوعية في مكان آخر ضربا من الترف الفكري ، وهكذا ....

(٣) العلوم الشرعية بالنسبة لغيرها من كبار العلم :

وما عدا علوم الشرع فهي من صغاره ، فما كان من الكتاب والسنّة والإجماع فهو علم مقطوع به أنه من الحق ، وهو الذي عليه الثواب والعقاب ، وهو ما أراد الله تبليغه لعباده ، وأرسل

لأجل هذا التبليغ رسوله به وأنزل كتابه ، وفي مقابل ذلك علوم مختلفة مما في أيدي أهل الكتاب ، وما روي عن الأوائل من المتفلسفة ونحوهم ، وما دلت عليه الأقيسة العقلية ، وما قاله أكابر هذه الأمة ، علماؤها وأمراؤها . وكذلك تتضمن الأقيسة العقلية الشرعية ، وما ينقدح في عقول البشر . كل ذلك فيه الحق والباطل فلا يرد كله ولا يقبل كله ، بل يقبل منه ما وافق الحق ، ويرد منه ما فيه من الباطل .

وبهذا الميزان تصبح كل هذه العلوم من صغار العلم مقارنة بعلوم الشريعة القطعية التي يجب تقديمها ، وذلك : (أن الحق الذي لا باطل فيه هو ما جاءت به الرسل عن الله ، وذلك في حقنا ويعرف بالكتاب والسنة والإجماع ، وأمّا ما لم تجيء به الرسل عن الله ، أو جاءت به ولكن ليس لنا طريق موصلة إلى العلم به ، ففيه الحق والباطل ، فلهذا كانت الحجة الواجبة الاتباع : للكتاب والسنّة والإجماع ، فإن هذا حق لا باطل فيه ، واجب الاتباع لا يجوز تركه بحال ....) [1] .

بل وحتى العلوم الشرعية لها منازل ومراتب ، ولا ينتقل

---

(١) فتاوى ابن تيمية ١٩ / ٥ .

من علم إلى آخر إلا باستكماله ، فقد قال أحدهم لمؤدب ولده : (لا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن اصطكاك العلم في السمع وازدحامه في الوهم : مضلة للفهم) (١)

(٤) صلب العلم قبل مُلَحه :

فكل علم أو فن له صلب ، وله مُلَح ، ويتميز أحدهما عن الآخر بأن صلب العلم يمتاز بثلاثة خصائص :

الأولى : هي العموم والاطراد .

والثانية : هي الثبوت في غير زوال .

والثالثة : كون العلم حاكماً لا محكوماً عليه ، بمعنى كونه مفيداً لعمل يترتب عليه مما يليق به .

(والقسم الأول هو الأصل والمعتمد والذي عليه مدار الطلب ، وإليه تنتهي مقاصد الراسخين ، وذلك ما كان قطعيا أو راجعاً إلى أصل قطعي ، والشريعة المباركة المحمدية منزلة على هذا الوجه ، ولذلك كانت محفوظة في أصولها وفروعها .. وأيضاً فإن الكليات العقلية مقتبسة من الوجود ، وهو أمر وضعي لا عقلي ، فاستوت

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٦٧ .

مع الكليات الشرعية بهذا الاعتبار ، وارتفع الفرق بينهما ..) (١).

وهذا مظهر آخر من تقدم الأصول على الفروع ، بل إن الشريعة نفسها بتكاليفها ليست على نمط واحد ، فقد وجد بالاستقراء أنها على ثلاثة أنواع : ضرورية وحاجية وتكميلية ، ولا ينتقل من إحداها إلى الأخرى إلا بعد استكمالها ، وكل تكليف قد يكون مداره على التقسيمات الثلاثة .

(٥) الواضح قبل الغامض :

ومن معاني الربانية أن الواضح من المسائل مقدمة على الغامض منها ، وهذا معنى قول ابن حجر : إن المراد (بصغار العلم ما وضح من مسائله ، وبكباره ما دقّ منها) ، إذا إن من المعلوم أن في كل علم جوانب واضحة يسهل فهمها وفيه ما قد يصعب فهمه ، أو يحيطه شيء من الغموض ، فيكون الواضح أولى بالتعلم من غيره

والأصل في المفتي والكاتب والداعية والخطيب إبلاغ العلم لأهله على هذا المنوال ، فلا يجوز للمفتي ـ عند ابن القيم ـ (تخيير السائل ، وإلقاؤه في الإشكال والحيرة ، بل عليه أن يبين بياناً مزيلاً للإشكال ، متضمناً لفصل الخطاب ، كافياً في حصول المقصود ،

---

(١) الموافقات للشاطبي ١ / ٧٧ ، ويعني باقتباسها من الوجود : أنها من حقائق الحياة وظواهرها العامة المطردة التي تعرف بالاستقراء والتجربة وليس بالتأمل فقط .

لا يحتاج معه إلى غيره) [1] .

ويقاس على المفتي غيره من أهل التربية والتعليم .

وقد ورد في النصوص نهي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الأغلوطات ، وهي الألغاز الملتوية ، وهذا الدليل ، وإن لم يكن مباشراً إلا أن الإمام الأوزاعي ـ رحمه الله ـ أخذ هذا المعنى المراد من الحديث ... فقال مفسراً : (يعني صعاب المسائل) [2] .

وكما أن الأمر ينطبق على المعاني ، فهو أيضاً ينطبق على الألفاظ ، فاختيار الواضح منها أولى من اختيار الغامض ، والبلاغة الحقة في اختيار المفهوم ، وترك المعقد ، فالبيان في بعض ما قيل عنه: (أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويحكي عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذي لابد منه أن يكون سليما من التكلف بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل) [3] .

ومما يتفرعُ عن ذلك كراهية التقعر في الكلام ، والبعد عن بسيط القول والسهل المفهوم من الكلام ، والأجدى اختيار أقصر الطرق ، وأسهل الأساليب التي يفهمها المخاطب ، ويدرك كنهها ، دون أن يؤدي به ذلك إلى عدم الفهم ، أو تحميل المعاني غير ما تحتمل

---

(١) إعلام الموقعين ٤ / ٢٢٨ .

(٢) عيون الأخبار ٢ / ١١٧ / ١٧٣ / ١١٨

(٣) عيون الأخبار ٢ / ١١٧ / ١٧٣ / ١١٨ .

(٦) المرونة في الأخذ والعطاء :

فمهما بلغ العلم من العلم فإنه لا يستطيع إدراك كل أمر ، فما أكثر ما سقط جهابذة العلماء في نسيان أمر بسيط ، وقد قال عمر رضي الله عنه : لا أعلم ما الأبّ ؟ لما قرأ (وفاكهة وأبّا) ، وأنكرت عائشة رضي الله عنها روايات بعض الصحابة ، كما أنها نفسها استدركت على كثير من الصحابة أخطاءهم ، وكأنه سر من أسرار الله تعالى ليثبت العصمة فقط لأنبيائه ، ولكي يظل العلم أخذاً وعطاءً ، ولابد فيه من التدريس لأجل التعلم ، كما أنه لابد من طلب السؤال والاستيضاح كي يتبين الخلل ، ويسد النقص ، ويدفع غرور المتحدث ، ويشارك الآخرين بالرأي .

قال الأصمعي عن إدراكه للعلم ، وكيف تم له ذلك (بلسان سؤول ، وقلب عقول ، وكنت إذا لقيتُ عالماً أخذتُ منه وأعطيته) (١) .

(٧) التدرج :

وهذا يقتضي الترتيب بين أجزاء الفن الواحد من العلم ، أو بين الفنون المختلفة من العلم ، والقفز دون مراعاة الترتيب يضيع العلم ، ويبعثر الجهد ، وليكن القصد تحري الترقي باستمرار .

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ١١٨ .

(فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضروريا ، وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب و التدريج) (١) .

وهنا موازنة لابد من ذكرها ، وهي أن لا يعكف المتعلم على إتقان فن من فنون العلم بحيث يحيط بكل جوانبه ومسائله وفروعه فإن العمر لا يتسع لكل ذلك، بل إن العمر لا يكفي أحياناً لاستجماع علم واحد فقط ، ولكن المقصود أخذ قواعد كل فن ، وأحسن مافيه ، ومناهجه العامة ، حتى لا يضيع غيره ، ولذلك قيل فى وصايا المتعلم : (أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعي الترتيب ويبدأ بالأهم ، فإن العمر إذا كان لايتسع لجميع العلوم غالباً ، فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه) (٢) .

والتدرج في العلم مظهر من مظاهر التيسير ، و التبشير ، وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما في كتاب العلم من صحيح البخاري : « يسروا ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا » .

وقال ابن حجر معقباً : (. . . . . . . وكذا تعليم العلم يجب أن يكون بالتدريج ، لأن الشيء إذا كان ابتداؤه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه ، وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالباً الازدياد ، بخلاف ضده) (٣) .

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٥٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٥٢ .

(٣) فتح البارى ١ / ١٦٣ .

ومن فروع التدرج التدريج مع تلميذك : (أن تتناوله المعلومات وتكسبه الصفات بتدرج ، وحسب أهميتها المطلقة ، شرعاً ومصلحةً أو أهميتها المرحلية ، أو أهميتها النسبية المشتقة من طبيعة تربيته السابقة قبل أن يبدأ رحلته معك ، فتبدأ بالأهم ، فالأقل أهمية ...) [1] .

وكذلك يجب أن تغرس الموازين الأساسية قبل تعليم تفاصيلها الجزئية ، أو المعلومات التكميلية وعلى تربيتنا الدعوية (أن تهدر الجزئيات والتفاصيل وتعتني بغرس الموازين الإسلامية وفق اختيارات شرعية صافية بعيدة عن أطوار التفكير الجاهلي ، والعربي خصوصاً ، .... ولا يضير بعد ذلك أن يكون التلميذ مفتقداً لصفات أخلاقية إسلامية تكميلية ، أو معلومات سياسية ثانوية ، أو أعراف إدارية ثانوية .... [2] .

ومظاهر التدريج هذه مطلوبة في طلب العلوم الشرعية والدنيوية ، كما أنها مطلوبة في الفقه الدعوي ، وبالتالي فإن معرفة صفات الخالق وأسمائه ومعرفة توحيد الربوبية والألوهية أولى من الخوض في الخلافات الكلامية ، ومناهج علماء الكلام ، والردود على أهل البدع ، وكذلك معرفة علم التوحيد يجب أن تسبق

(١) من رسالة تذكرة المربي .

(٢) من رسالة تذكرة المربي

معرفة علم الفقه ، والجد في فهم القرآن وقراءة الحديث مقدمة على أصول الفقه والخلاف .

واستغرب ابن الجوزي كيف أضاع بعض العلماء أعمارهم في تفويت علوم مهمة نتيجة لانشغالهم بعلم واحد ، طمعاً في استكماله وتحصيل كل فروعه ، فأدى ذلك إلى تضييع بقية العلوم ، دون الحصول على فائدة العلم الواحد ، إذ إن بين العلوم تداخلاً ، ولا تؤتي الثمرة إلا بفهم القليل من كل علم ، ثم لا بأس من الاستكثار من أحدها أو بعضها .

(اعلم أنه لو اتسع العمر لم أمنع من الإيغال في كل علم إلى منتهاه ، غير أن العمر قصير ، والعلم كثير .. فالتشاغل بغير ما صحّ يمنع التشاغل بما هو أهم .... ولما تشاغل يحيى بن معين فاته من الفقه الكثير ..... ومن أقبح الأشياء أن تجري حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها) [1] .

فانظر نقد ابن الجوزي ليحيى بن معين على غزارة علمه في الحديث ، وفضله ، ولكنه مع علمه الحديثي في الرجال غابت عنه بعض مسائل الفقه البسيطة ، بل ـ ورغم علمه ـ لم يدرك ما وصل إليه أقرانه كالإمام أحمد وغيره رحمهم الله تعالى .

---

(١) صيد الخاطر / ٣٦٦ .

(٨) المتفق قبل المفترق :

أن يكون التعليم للمسائل المتفق عليها ولا يخوض في مسائل الاختلاف ، فالاختلاف للمتعلم مفسدة ، وإضاعة لأصل مقاصد التعليم ، كما وأنه يربك عملية التفكير ، إضافة إلى ما قد يؤدي إلى إضاعة الدين وحفظ أصول الشريعة ، لما في الأمر من ضياع في متاهة الجدول ولذلك قيل : (أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة . فإن ذلك يدهش عقله ويحيّر ذهنه ، ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع) [١]

ولا يعنى ذلك تقليل أهمية علم الفقه المقارن ومعرفة أسباب اختلاف الفقهاء ، فإن هذا العلم من الأهمية بمكان ، وهو العُدة الرئيسة لمن يطلب الاجتهاد ، أو لمن يطلب جمع صحاح المسائل وجيّد الإفتاء إذا عزم على التحرر من ضيق التقليد المذهبي ، ولكن الكراهة تنصرف إلى تقديم الأشتغال بذلك والتهاء من لازال في مدارج البداية بمثل هذا الاختلاف ، فإنه يشتت فكره ويوهمه أوهاماً يليق به أن يكون عنها بمعزل .

وما ينطبق على الفقه ، ينطبق على العمل التربوي أيضا ، وقد أورد ابن القيم هذا المعني تمييزاً بين المتكلم والسالك إلى الله :

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ١٥ .

(فترى المتكلم يبحث في الزمان والمكان والجواهر والأعراض والأكوان ... والسالك إلى الله قد تجاوزها إلى جمع القلب على ربه المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته ... فالمتكلم متفرق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان ، والعارف قد شحّ بالزمان والمكان إن يذهب ضائعاً في غير السير إلى رب الزمان والمكان) [1] .

فعلى المربي والمعلم مراعاة ذلك ، وأن لا يسمح لإخوانه بالقفز في سلم المعرفة : (وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلى ..) (٢) .

فهذا الواجب منصب على المربي والمعلم قبل التلميذ الطارئ على طلب العلم والذي قد لا يدرك المفسدة في ذلك ، لذلك فالتقصير في تدريس العلم وفق مراتبه مما ينقد عليه العلماء ، ولذلك انتقد السلف بعض العلماء وقالوا عنهم :

(أبحثُ الناس عن صغير ، وأتركهم لكبير) .

(أعلم الناس بما لم يكن ، وأجهلهم بما كان) .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٤٩ .

(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٥١ .

وقد تكون هذه الصفات من خصائص علماء الدنيا ، الذين يطلبون بتدريس العلم الشهرة والرئاسة .

ويتضمن هذا المعنى أيضاً عدم تتبع شوارد المسائل ، أوما لا طائل وراءه وقد قال ابن القيم : (من تتبع غرائب المسائل ، لم يصب من الخير شيئاً) .

(٩) التخصيص :

ومن معانى الربانية في التعليم تخصيص قوم دون قوم بنوع من العلم ، وذلك لاختلاف المفاهيم والمدارك ، والتجارب والممارسات ، مما قد يؤدي إلى الفهم الخاطئ أحياناً من قبل البعض عند استماعهم أو قراءتهم لعلم دون مداركهم . أو أن يقود إلى تأويل واه ، أو تفسير باطل ، بل قد يؤدي إلى تحميل الكلام أكثر مما يحتمله ، والبناء على الألفاظ أكثر مما تطيق ، وفى حالات أخرى قد يكون ظاهر الحديث أو المقال يقوى على بدعة أو يقود إلى معصية بينما ظاهره في الأصل غير مراد ، ولذلك ورد عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جملة أحاديث يُستنبط منها هذا المعني ... ومنها قوله لمعاذ « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل

الجنة ، قال : ألا أبشر الناس ؟ قال : لا ، إني أخاف أن يتكلوا »[1]

وقد استنبط البخاري المعنى المطلوب فترجم لهذه الأحاديث في كتاب العلم من صحيحه بقوله : (من خَصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا . وقال علي : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟) .

وقال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه ، واعتبرها كقاعدة في منهجه : (فأما عوام الناس الذين هم بخلاف معاني الخاص من أهل التيقظ والمعرفة فلا معنى لهم في طلب الكثير ، وقد عجزوا عن معرفة القليل) .

وفي إطار العمل الإسلامي يضطر المربي أحياناً أو المعلم ـ انطلاقاً من هذا المفهوم التربوي ـ أن يخص أفراداً دون غيرهم ببعض الأحاديث أو الكلام ، وليس ذلك تضعيفاً لهم أو عدم الثقة بهم ، أو حجزهم عن خير كثير ، أو حرمانهم من فضل العلم ، ولكن منعاً لسوء فهم ، أو إدخالهم في فتنة ، أو أن يكون العلم بحاجة إلى مقدمات أخرى ، بل قد يكون الغرض أحياناً من منع بعض الأحاديث عن بعض الدعاة هو حفظ قلوبهم من الوسواس ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

ولآذانهم من سماع الغيبة ، ولصدورهم من الضغينة ، وسد أبواب فضول الكلام عنهم ، وإعانتهم على عدم التدخل فيما لا يعني ، أو الانشغال بما لا يجدي .

واستدل ابن حجر لهذا المعنى بذكر بعض أنواع الأحاديث التي يحدث بها قوم دون قوم ، فأورد بعض ما اجتهد به علماء السلف . فقال : (وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد فى الأحاديث التى ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات ، وأبو يوسف في الغرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجُرابين وأن المراد ما يقع من الفتن ، ونحوه عن حذيفة ، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العُرنيين لأنه اتخذها وسليه إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي ، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة وظاهره في الأصل غير مراد ، فالإمساك عنه عند من يخشي عليه الأخذ بظاهره مطلوب) (١) .

ومما روى أيضاً ما ذكره مسلم عن ابن مسعود : (ما أنت بمحدث قوماً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) (٢) .

قال ابن وهب (وذلك إن يتأولوه غير تأويله ويحملوه على

(١) فتح البارى ١ / ٢٢٥ .

(٢) مقدمة صحيح مسلم .

غير وجهه) .

وخرّج شعبة عن كثير بن مروة قوله : (إن عليك في عملك حقاً كما عليك في مالك حقاً ، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل ، ولا تمنع العمل أهله فتأثم ، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك) (١) .

ومن دواعي التخصيص أيضاً اختلاف قوة الدوافع التي تدفع الدعاة لتعلم علم من العلوم ، وقد يوافق العلم هوى الداعية وقد لا يكون ، وهذا يؤثر بدوره على المربي أو المعلم بإقباله على التدريس وتوفره على التعليم فلا يطوي ما عنده من المكنون ، ولا يخفي عن جنوده المخزون . ولذلك فاختيار المربين لصنوف الدعاة في استماعهم لأنواع من الكلام يخضع إلى قواعد التربية وأصول البناء . . ، ويحكم ذلك التجارب والممارسات الدعوية وقد قيل :

(لكل تربةٍ غرس ، ولكل بناء أس)

(ولكل ثوبٍ لابس ، ولكل علمٍ قابس) .

وما أحوج جمهور المربين والدعاة لهذا المعني ، وأن يقتصر حديثهم على ما ينفع ، وترك الخوض في ما يقود إلي الخلاف أو

---

(١) الاعتصام للشاطبى ٢١٤ .

قسوة القلب ، من حب الحديث والجاه ، ومداهنة أهل الفتن ، [illegible] القادة ، وخلافات الأقران ، وأسرار [illegible] .

وهذا لا يتم أيضاً ــ فوق ذلك كله ــ إلا بفراسة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده العلماء ، حتى يستطيعوا تمييز المتعلم المناسب واختيار السامع له . (وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ، ليعرف مبلغ طاقته ، وقدر استحقاقه ، فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم . وإذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبيرا ، لم يضع له عناء ، ولم يخب على يديه صاحب ، وإن لم يتوسمهم ، وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم ، كانوا وإياه في عناء مكد وتعب غير مجد ...) (١)

وهذا الفراسة وإن كانت الأذهان والقدرات منها [illegible] فإن للتقوي والتجارب نصيبها الأوفر .

وقد اعتبر بعض العلماء أن من الضرورة كتمان العالم لبعض العلم ، بل وإنها من مظاهر الإمامة ، فقد قال الإمام مالك مؤكداً لهذا المعنى : (لا يكون إماماً أبداً ، وهو يحدث بكل ما سمع) (٢) .

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي / ٨٩ .

(٢) مقدمة صحيح مسلم .

فانظر لهذا الفقه الوافر من الفقيه الجليل ، فالفقه ليس بكثرة الكلام وإنما باختياره لمن يصلح له .... ولذلك قيل : (قلوب الأبرار قبور الأسرار ، فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد) (١) .

ويجب التنبيه هنا ـ مع هذا التخصيص ـ إلى عدم إشعار الدعاة الآخرين من قبل المربين بوجود دورس خاصة ،أو بحوث مميزة ، أو دراسات معينة ، وإشاعة ذلك ـ وإن كان من الضروري تربيتهم على ذلك ، والرضا به ـ والسبب ما قد يحصل للبعض من فتور في طلب العلم الأولى والاستزادة ، وتشوقه إلى النهاية ، فينشغل قلبه بحب الاطلاع ، وقد أشار الغزالي لهذا المعنى فقال عن المتعلم القاصر : (ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له وراء هذا تدقيقاً ... فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق ...) (٢) .

(١٠) سهولة العبارة مقدمة على صعوبتها :

لأن الأصل تبليغ السامع بالمعنى ، وتوصيل العلم إليه بأقرب طريق دون التواء ، إذ لو صحت النية من المتحدث أو الكاتب لاختار أحسن السبل لإيصال العلم ، ولا يختار الطريق الوعر ، لأنه ليس بحاجة لإثبات فصاحته ، ولا لإظهار عمله ، بل يطلب بالعلم

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٥٧ .

(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٥٨ .

رضا الرحمن .

(وعلى هذا النحو مرّ السلف الصالح في بث الشريعة للمؤالف والمخالف ، ومن نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية علم أنهم قصدوا أيسر الطرق ، وأقربها إلى عقول الطالبين ، لكن من غير ترتيب متكلف ، ولا نظم مؤلف ، بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه ولا يبالون كيف وقع في ترتيبه ، إذا كان قريب المأخذ سهل الملتمس ..) (١)

ومن المسالك الوعرة في تصعيب الألفاظ ، وإضاعة المعاني ، ما قد يلجأ إليه البعض من استعمال المجاز المبالغ فيه ، والرموز الشاذة المعقدة وجميع أنواع المواضعة الاصطلاحية ، والمواضعة ضربان : أحدهما : عامة وهي ما تواضع عليه العلماء في كل علم فيما جعلوه ألقابا لمعان لا يستغني المتعلم عنها ، ولا يقف على معنى الكلام إلا بهاء والثانية : خاصة وهذا هو الذي لا ينبغي استعماله من قبل الداعية ، لعدم فائدته من جهة ، ومظهر من التخليط في النية من جهة أخرى لأنه : (إنما يختص غالباً بأحد شيئين : إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ، وبجعل المرمز سبباً لتطلع النفوس إليه ، واحتمال التأويل فيه سبباً لدفع التهمة عنه ، وإمّا لما يدعي أرباب أنه علم معوز ، وإن إدراكه بديع معجز ....) (٢) .

---

(١) الموافقات ١ / ٥٩ .

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي / ٦١ .

وكلا الأمرين مما يترفع عنه الداعية ، وحتى لو احتاج إليها لسبب ثانوي فيربأ بنفسه عنها ، سداً للذرائع ، وابتعاداً عن قاله السوء ، ولكن مع هذا : (... ربما استعمل الرمز من انكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه من الألفاظ ، ليكون أحلى في القلوب موقعا ، وأجل في النفوس موضعا ، فيصير بالرمز سائراً ، وفي الصحف مخلّداً .....) [1] .

وعندئذ لا بأس باستعماله ما دام مفهوما ، ويقع في قلب السامع موقعاً جميلاً ، ما دام لا يقود إلى مفسدة ، على شرط عدم المبالغة والإكثار منه ، أو التكلف للاتيان فيه ، وأن يكون السامعون ممن تدرك عقولهم مثل هذه الرموز ، ومع هذا فالنقد هنا ينصب على الخطيب أو الكاتب إذا تكلف الأمر والصعوبة ، وكان يمكن له التبسيط والتسهيل إذ إنه يتعمد التكلف ويسعى إليه مما يُشعر السامع بأنه يبتغي وراء ذلك شهوة القول ، ولا يحرص على تبليغ المعني وربما لا يكون مسؤولا عن ذلك فقد يكون الأمر بحد ذاته يحتاج إلى زيادة تأمل وفضل معاناه ، حتى ينجلي ذو الخفاء ، وينكشف الغامض ، وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به فيسهل منه الصعب ويقرب به البعيد ، وعندئذ يبرأ القائل به من الاتهام ، والأمر

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى / ٦١

مردوده إلى نفس الكلام ، أو إلى العسرفى الأفهام ، بل وأحياناً كل القصور في الفهم من المستمع أو القارئ ، فقد يمنعه مانع من تصور المعنى وفهمه ، فهذا من قلة الفطنة أحيانا ، ولا ذنب لأسلوب الكاتب ، وعلى من يبتلي بذلك كثرة المطالعة وإعادة النظر ، والسؤال عمّا أشكل عليه ، وقد قيل :

(لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ، ويكد نفسه ، وكثرة الدرس كد لا يصبر عليه إلا من يرى العلم مغنما ، والجهالة مغرما ، فيحتمل تعب الدرس ، ليدرك راحة العلم ، وينفي عنه معرة الجهل .....) (١) .

وقد يكون السبب شبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوره ، وتدفع عن إدراك حقيقته ، أو أفكار تعارض الخاطر ، فتذهل عن تصور المعنى لانشغال الذهن ، وتعب العقل ، وغياب الوعي ، فهذه الأمور إذا طرأت على الإنسان لم يقدر على مغالبة قلبه ، وإجبار عقله ، وهنا يأتى المعني التربوى الذى قُصد من ربانية التعليم ، والتوسط في التقديم ... وقد قيل : (إن لهذه القلوب تنافراً كتنافر الوحش ، فتألفوها بالاقتصاد في التعليم ، والتوسط في التقديم ، لتحسن طاعتها ، ويدوم نشاطها) .

---

(١) أدب الدنيا والدين / ٦٥ .

وبناء على ما ذكر يظل واجب المربي منتصبا في ضرورة تخير الألفاظ لكل طبقة ، ومعرفة طبيعة المستمعين جزء مهم من الوعى ، وقد يكون التدقيق الكثير مضيعة للبساطة المطلوبة ، ولذلك يوصي بأن : (يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ متخيراً للفظ ... ويكون فى قواه فضل للتصرف فى كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح)[1] .

بل إن الاسترسال بالمعاني أبلغ حتي فى السمع ، وما خرج من القلب يدخل إلى القلب ، وكثرة الشرح والتفصيل تقتل جمال المعاني ، ومن أبيات الشاعر العالمي فيكتور هيجو :

(لا تشرح ، فإن الشرح يفسد طرافة الموضوع) .

(١١) الأساليب الجميلة :

من الربانية استعمال الأساليب الجميلة الحلوة المؤدية للمعنى ، وعدم استعمال العبارات الخشنة الجارحة والتي لها نفس الأداء ، لأن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ،والعبارات الجميلة دليل على شفافية المسلم ، وحسن انتقائه ، وقد قال المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (لا يقولن أحدكم خَبُثَتْ نفسي ، ولكن ليقل لَقِست نفسي) .

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٧٣ .

(يؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء ، والعدول إلى ما لا قبح فيه .. وإن كان المعني يتأدى بكل منهما ..) (١) وللتعبير أثر في إبراز الحق وكم من حق يخرجه إلى الباطل سوء التعبير ، وما أحسن القائل :

تقول : هذا جناء النحل تمدحه
وإن تشأ ، قلت : ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً ، وما جاوزت وصفهما
والحق قد يعتريه سوء تعبير

(١٣) المزج بالرقائق :

ومن الربانية في التعليم مزج كل علم بالرقائق كي تتحقق السكينة الإيمانية ولا يسيطر العقل وحده على القلب ، والفكر على الروح ، فتتحول المعاني الإيمانية إلى فلسفة عقيمة ، وتضيع المقاصد الأصلية لعملية التعليم التربوي ، إذ أن أصل المقاصد في التعليم ربط المخلوق بربه ، وتذكيره بالآخرة ، وجعله يشمر بساعد الجد للعبادة والعمل ، وإلا فدراسة العلم دون هذه النية مضيعة للوقت ، والتهاء بالشهوات وقد قيل :

(رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٦٤ .

الصالحين ، فأما مجرد العلم بالحلال فليس له كبير عمل في رقة القلب ، وإنما يرق القلب بذكر رقائق الأحاديث ، وأخبار السلف الصالحين ، لأنهم تناولوا مقصود النقل وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها .

وما أخبرتك بهذه إلا بعد معالجة وذوق ..... فافهم هذا ، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف الزهاد في الدنيا ليكون سبباً لرقة قلبك ....) (١) .

ولمّا كان هدف عملية العلم والتعليم القرب من الله تعالى وليس طلب الدنيا بها ، ففي هذا المعنى صلاح للمعلم والمتعلم ، إذ فيه يتذكر المتعلم إن مال العلم القرب إلى الله ، وقصده في القراءة أو السماع تحلية الباطن وأن لا يقصد به مباهاة الأقران ، والتفاخر على الغير ، ويذكر المربي أو العالم نفسه دائما بنفس المعاني ، ويتذكر أن تعليمه : لله تعالى ، دون الرئاسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده إذا تجافى عن الصواب ، أو فسدت النية .

وهذا المسلك في التعليم لابد من التذكير به دائماً ، وعدم الأخذ بالأساليب الغربية الباردة حيث الاكتفاء بجوهر الموضوع

---

(١) صيد الخاطر / ١٩٧ .

فقط ، فإنما تصلح هذه الطريقة للمباحث الطبيعة لاختلاف أهدافها ومقاصدها ، أما التعليم الدعوى فلابد له من حديث القلب ، وأسلوب القرآن الكريم أكبر دليل على هذا الأمر ، فليس فيه اقتصار على معان محددة ، وإنما يخلط الفقه والأحكام بذكر الموت والآخرة وربطها بالثواب والعقاب ، والله تعالى أعلم بقلوب عباده وما تحتاج إليه .

(١٣) تحذير المحدث من اللجاج :

يكره التزود بما لا طائل بعده .. وكذلك التكلف ، وقد قال الجاحظ في رسائله يحذر المتحدث والكاتب من ذلك وناصحا له : (وأنا أحذرك من اللجاج والتتايع [١] ، وأرغب إلى الله لك في السلامة من التلون والتزيد ، وفي الاستطراف والتكلف ، فإن اللجاح لا يكون إلا من خلل القوة ، وإلا من نقصان قد دخل على التمكين ، واللجوج في معنى المغلوب ....) .

ومعني هذا الأمر عدم اختيار المعاني التى تقود إلى الجدل ، أو التي تستثير الفتن والمشاكل ، أو أن المحدث يختار الرد على ما انتقد عليه ليريح نفسه ، ويشبع غروره ، ويبلغ الانتصار من

---

(١) والتتابع فى الأمر : السير فيه على خلاف الناس .

خصمه ، وكذلك عدم المبالغة بمظاهر التقوى ، وادعاء الزهد ، والتكلف في الوقار ، وعليه أن يسمع نصيحة ابن قتيبة في مقدمة عيون الأخبار حيث قال : (وأحببت أن تجري على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزهت ، وثلموا أديانهم وتورعت ......) .

(١٤) ربانية الجواب :

وأخيراً نختم المبحث بربانية الجواب ، فإن المتحدث أو الكاتب لابد من تعرضه للأسئلة ، فكان لزاما : الجواب عنها ، وتكثر الحاجة لذلك وسط الدعاة ، بل غالبا ما يكون وقت الأسئلة للمربين والقادة والخطباء ـ في كثير من الأحوال ـ مساوياً لوقت الدرس أو المحاضرة .

وبحسبنا هنا أن نذكر أهم خصائص الجواب ، قياساً على ما ينبغي للمفتي أو الإمام عندما يُسأل عن مسألة :

يجوز للمتحدث أو المربي أن يجيب السائل بأكثر مما سأله (وهو من كمال نصحه وعلمه وإرشاده ، ومن عاب ذلك فلقلة علمه) [1] .

---

(١) إعلام الموقعين ٤ / ٢٠٥ .

وقد ترجم الإمام البخاري في نهاية كتاب العلم من الصحيح (باب : من أجاب السائل بأكثر مما سأله) عند إيراده لحديث المحرم الذى سأله عن ما يلبس المحرم ، فأجابه صلى الله عليه وسلم : (لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا ثوباً مَسَّهُ الورس)

ويوخذ من الحديث : (إن المفتي إذا سئل عن واقعة واحتمل عنده أن يكون السائل يتذرع بجوابه يعديه إلى غير محل السؤال : تعيّن عليه أن يفصل الجواب) (١) .

ينبغى للمربي إذا سأله إنسان عن شيء يحتاج ، ومنعه منه ، أن يدله على ما يعوض عنه ، وهذا من تمام شفقة المربي والداعية على أخيه حتى لا يدعه في حيرة من أمره ،أو يصعب عليه الأمر ، أو يجعله يشعر بعدم كفاية المربى .

(فمثاله في العلماء مثل الطبيب الناصح في الأطباء ، يحمى العليل عمّا يضره ويصف له ما ينفعه ، فهذا شأن أطباء الأديان والأبدان) (٢) .

ودليل ذلك منع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبلال أن

(١) فتح الباري ١ / ٢٣١ .

(٢) إعلام الموقعين ٤ / ٢٠٥ .

يشتري صاعاً من التمر الجيد بصاعين من الردىء ، فقال له في الحديث المتفق عليه :

(بعْ الجمع بالدراهم ، ثم اشتر بالدراهم جنيبا) .

والجنيب : هو المنتقى الذي لا رديء فيه ، أو الكبيس .

والجمع : هو الدّقل أي رديء التمر .

والمنع ـ فى إطار الجماعة المسلمة ـ من أمر ما ، دون تبيان السبب أو إعطاء البديل لا يقود فقط إلى الحيرة ، وعدم الشعور بعدم كفاية المربي ، بل قد يقود الداعية ـ والناشئ خاصة ـ إلى التخبط والبحث عن الجواب عند شخص آخر ، يوقعه في فتنة .

التنبيه على وجه الاحتراز ، إذا شعر المتحدث أن كلامه سوف يؤدي بالبعض إلى فهم خاطئ ، أو إضافة غير صحيحة عليه ، أو أن هنالك استثناء في أصل المسألة .

وكلما كان كلام المتحدث أو الكاتب مرغوبا فيه ، ومما يتلقفه الدعاة : كلما دعت الضرورة أكثر إلى الحذر في العبارات ، و التنبيه عما قد يحصل من الفهم الخاطئ ، أو التفسير السئ ، حفظاً للمصلحة ، فليس هنالك ما هو أسوأ من زلة العالم في

اختلاف العقول وتباين الأفهام .

التمهيد للحكم أو القول المستغرب بما يوضح ذلك ، ويدفع السوء ، حتى لا يسبب مفسدة قبل استكمال الجواب ، وحتى تتنبه النفوس للسماع الكامل ، وحتى يرجع صاحب الغفلة إلى الانتباه فلا يقع في الوهم .

(إذا كان الحكم مستغرباً جداً مما لم تألفه النفوس ، وإنما ألفت خلافه ، فينبغي للمفتي أن يوطئ قبله ما يكون مؤذناً به كالدليل عليه، و المقدمة بين يديه ، فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة وبلوغه السن الذي لا يولد فيه لمثله فيه العادة ... والمقصود أن المفتي جدير أن يذكر بين يدي الحكم الغريب الذي لم يؤلف مقدمات تؤنس به ، وتدل عليه ، وتكون توطئة بين يديه) (١) .

ومثل هذا تكثر الحاجة إليه وسط الدعاة ، كالإفتاء في بعض المسائل التي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، أو الخروج عن المألوف من الأحكام لمصلحة شرعية ، أو لضرورة ، أو التشدد فى أحكام أخرى سداً للذريعة ، أو بعض الفتاوى التى تصح فى دار الكفر دون دار الإسلام ، أو الأخذ بالأحوط حينا وبالأيسر حيناً آخر.

---

(١) إعلام الموقعين ٤ / ٢١٢ .

إعطاء الجواب على قدر فهم السائل ، ولذلك قيل : إن معرفة الناس ضرورية ، وتعرف هذه من قرائن الأحوال ، فجواب سؤال العالم ليس كسؤال العامى ، والجواب اللازم للداعية الملتزم ليس كجواب من كان جديداً على العمل الإسلامى ، وجواب الباحث عن المعرفة ليس كمن يريد إفحاماً وتعريضاً ، والإجابة فى الجمع ليس كالإجابة لفرد يمكن النظر إلى حاجته ومقصده ، ولهذا اعتبر هذا المنهج من ملامح البلاغة ، فاشترط للبليغ :

(أن لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة) [1]

ولما ذكرنا بعض خصائص الإجابة التى تجب على الداعية الخطيب أو الكاتب ، أو عموم أحاديث الدعاة من الشيوخ والمربين ، فليس من نافلة القول أن نذكر ملخصا للمواضع التى يكره فيها السؤال ، تعليماً للدعاة وتربية لهم وتنبيها ، وأولى المسلمين بالالتزام بها : جمهرة الدعاة على اختلاف مستوياتهم .

ونكتفي بعشرة مواطن مهمة يكره السؤال فيها ، ننقلها ـ بتصرف واختصار ـ عن الموافقات للإمام الشاطبي رحمه الله :

* السؤال عما لا ينفع في الأمور الدينية والدعوية .

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٧٣ .

* السؤال عن زيادة لا فائدة منها ، بعدما بلغ المرء من العلم فى المسألة حاجته .

* السؤال من غير احتياج إليه عند وقت السؤال .

* السؤال عن صعاب المسائل وشرارها ، وغرائب الأمور ، والأغلوطات .

* السؤال عن علل الأحكام التعبدية التي لا يعقل لها معنى .

* أن يبلغ السائل بسؤاله إلى حد التكلف والتعمق الزائد .

* أن يظهر من السؤال معارضة واضحة لظاهر الكتاب الكريم والسنة بمجرد الرأي .

* السؤال عن المتشابهات فى القرآن الكريم .

* السؤال عما شجر بين الصحابة الكرام ، وكذلك السلف الصالح وعلماء الأمة .

* سؤال الإفحام ، والتعنت وطلب الغلبة في الخصام .

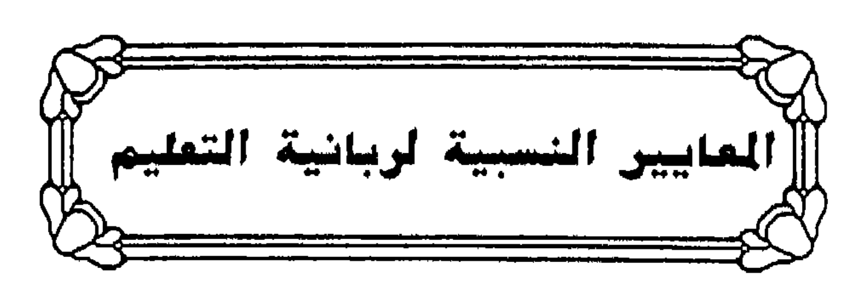
ثم قال الشاطبي : (هذه جملة من المواضع التي يكره السؤال فيها ، يقاس عليها ما سواها ، وليس النهي فيها واحداً بل فيها ما

تشتد كراهيته ، ومنها ما يخف ، ومنها ما يحرم منها ما يكون محل اجتهاد ....) [1] .

ويكتفى بهذا الحد من خصائص (**ربانية التعليم**) ، وما هي إلا مجرد لمسات ، وقد يرد ما هو أكثر من ذلك في مباحث أخرى ولعل ما ذكر في هذه الحلقة من هذه السلسلة ما يغطي هدفاً عاجلاً في إتقان عملية التربية الإسلامية .



(١) الموافقات ٣ / ٣٢١ .



المعايير النسبية لربانية التعليم

يثير مبحث (ربانية التعليم) قضية في التعليم الدعوي المنهجي هي على مقدار عظيم من الأهمية ، وبخاصة أن المذهب السائد فيها ، القائل بالتدرج ، يمكن أن يعاكس بمذهب آخر يقوم على اجتهاد مغاير لايمنع تجاوز التدرج عند توافر مواصفات وشروط معينة .

وفي مثل هذا الموطن تختلط بعض الاصطلاحات ، كما هي مختلطة في القول المنقول عن ابن حجر من وجوب بدء المعلم بصغار العلم ومقدماته وجزئياته قبل كباره ونتائجه وكلياته ، فصغار العلم تعبير واضح ، وبيان المقدمات قبل المقاصد أو النتائج أمر يوجبه المنطق ، ولكن تناول الجزئيات قبل الكليات ، والفروع قبل الأصول ، هما من الأمور المنهجية التي يتعدد فيهما الصواب ، وتختلف فيها النظرات ، وفي كل منها مقدار لا يمكن تجاوزه من وجوب التدرج الذي يتلاءم مع نظرية الربانية هذه ، إنما فيهما أيضاً مقدار من تأخير فتح ذهن الطالب المتعلم على صنعة التحليل والاستقراء ، والقياس والاشتقاق ، في وقت ربما تكون فيه حدّة ذكائه في أقصى مستوي لها ، وشغفه وإقباله في أكمل حضورهما

وبخاصة عند بداية التعلم ، حيث تستبد الأشواق وتستعر الهمم ولذلك يمكن ويجوز لبعض المربين أن ينتهج نهج تدريس العلوم من أعلاها ، بذكر المهم قبل الثانوي ، وذكر الكليات والقواعد والموازين قبل الفروع والجزئيات والمقدمات ، استثماراً لعاملي الذكاء و الإقبال من باب ، وقذفاً لهذه المعاني في اللاشعور من باب آخر وإن لم يدرك الطالب تمام ما فيها ، وتدريباً له أيضاً من باب ثالث على التحليل والتركيب في وقت مبكر يجعله يلتزم المنهجية في استقبال المعلومات وتصنيفها ومعرفة قيمتها.

وقد يعطي المربي طلابه مثل هذه القواعد والتمارين التحليلية على جرعات ووجبات بينها فواصل زمنية يرجع خلالها إلى تعليمهم الجزئيات والفروع ، وهذه الطريقة تفرضها حاجة ماسة مرئية مجربة في الواقع هي مفاد نظرية الربانية ، إذ كيف يستطيع الاستقراء من لم تكن له ثروة من المعلومات الجزئية يستطيع إجالة النظر عبرها ليستقرئ منها شيئاً من الملاحظات والأمور المتكررة على نسق واحد ليجمع منها قاعدة ، مثلاً ؟ وكيف يستطيع القياس والاشتقاق مَن لم يحط أولاً بخبر الحكم الواضح الثابت الذي يقاس عليه أو يشتق منه ؟

ولهذا فإن مسألة تقديم الأصول على الفروع أو العكس يمازجها اجتهاد منهجي ، ونظر ذوقي فراسي ، كما يتحكم فيها

نوع العلم ، ومستوى الطالب في الذكاء والاستعداد ، ولانرى الإطلاق فى صحة أحد المنهجين المتعاكسين ، وإنما هو اختيار للمربى تحكمه التجربة . بل وتحكمه المغامرة أيضا فى بعض الأحيان ، كما هى اختيار كذلك لواضعى المنهج التربوي ، ولكن هذه النسبية ليست نفياً للتدرج ، وليست هي أقل أثراً وأهمية في إثبات وجوب نظرية الربانية ، فإنها تتضمن هذا التدرج المبتغى وإن جاز الوجه الآخر ، وفى ذلك دفع وإبطال لغلط الدعاة المربين الذين يغفلون ولا ينتبهون إلى ضرورة التسلسل أو التدرج الذي تدعو إليه نظرية ابن عباس وابن حجر في ربانية التعليم .

لماذا تربية التقليد إذ الاجتهاد قريب ؟

وجماع القول في هذا الأمر ينقسم إلى ثلاث شعب :

(الشعبة الأولى) :

أن الإسراف في تعليم الفروع ، وتجريدها ، والغلو في عرض المقدمات بدعوى التدرج : يؤديان إلى نشوء عقلية تقليدية محضة تستولي على التلميذ وتجعله سلبيا ، لا يطمح إلى إعمال التفكير ، ويصبر اتكالياً في العلم ، بينما الواجب على المربي أن يثير في التلميذ كوامن القابلتين المتعاكستين ، التحليلية والتركيبية ، من أجل إنماء العقلية الاجتهادية فيه ، وإنما يكون ذلك بطريقة عرض

الأصول والقواعد ، وقد يكون الداعية المربي نفسه بحاجة إلى هذه الطريقة من معلم أعلى يعلمه ، أو من خلال المطالعة المكثفة ، إذ إنه بدوره ضحية منهج الاستغناء بالفروع الذي كان سائداً ، بل إن أكثر علماء الأمة الإسلامية اليوم هم ضحية هذا النمط الذي استولى على طرائق التعليم فى قرون التخلف الأخيرة .

(الشعبةالثانية) :

أن المعنى المغاير للتدرج يتأكد في المحيط الدعوي بخاصة ، وذلك بسبب كون الدعاة الذين هم فى طور التلمذة رجالاً راشدين وأصحاب ذكاء ، ولم يقبلوا فى الجماعة الدعوية أصلاً إلا من بعد قيام قرينة على توفره فيهم ، وأيضاً لأن الكثير منهم أصحاب دراسة جامعية وربما أصحاب شهادة أعلى ، مما يعني اطلاعهم على أبواب من العلم التقعيدى والتحليلى ، وهو وإن لم يكن في المجال الشرعي إلا أنه مفيد ، إذ يوجد سبيل استطراقي مشترك بين العلوم ،وبعضها يؤثر في البعض الآخر ويمهد له ، والمقدرة الاجتهادية تنمو جزماً لدى دارس للقواعد الإدارية والاقتصادية ، أو لدى متتبع للظواهر الفيزياوية والمعادلات الرياضية ومثل هؤلاء إذا كانوا من الدعاة وأردنا تعليمهم العلم الشرعي فإن الطريق يختصر لهم اختصارا ، وتقوم علومهم التطبيقية أو دراساتهم الإنسانية مقام الترويض الذي يرجوه المعلم من الفروع والجزئيات ، ويمكنه أن يبدأ معهم دراسة الكليات والأصول .

تأثر التربية بعوامل عديدة غير التدرج :

(الشعبة الثالثة)

أن أمر صياغة العقلية الناضجة الكاملة التي من صفاتها الاجتهاد أبعد من أن تسأل عنه هذه الطريقة في التدرج أو عدمها ، وإنما هي عامل واحد من جملة عوامل وفنون عديدة تجتمع لتنتج الأفق الواسع ، وقد يكون سرد هذه العوامل مضمراً لدى الباحثين حين يكتبون ، ولكن القارئ ينحرف بمقاصدهم إلى أحادية التفسير ، ويجعل القضية المبحوثة كأنها الوحيدة المسؤولة عن الظاهرة المرصودة وسببها المفرد ، وليس ذلك بصحيح ، ولا يليق أن نستدرك على مثل هذا الخلل في التلقي مقدماً وابتداء بذكر جميع ما هنالك من أخبار وفنون التربية ، لأنا نخاف أن يؤدي الإيجاز غير المشروح إلى خلط آخر وتنزيل للكلام على غير منازله المقصودة .

الحوار سُنّة السلف المربين :

وإنما يسعنا هنا أن نشير إلى أن الحوار بين المربي وتلميذه هو أحد أهم الوسائل الأخرى لتكوين العقلية الاجتهادية الإبداعية ، ويأتي مسانداً للطريقة المضادة للتدرج التي أشرنا إلى نسبية صوابها ، بل ومسانداً لطريقة التدرج أيضاً ، قد مالت

(منهجية التربية القيادية) في سلسلة العين إلى شرحه وتحبيذه وجعله معلماً بارزاً من معالم هذه التربية ، وهي تذكرنا بماكان من حوار ثري دفاق دائم يومي في مجالس أبي حنيفة مع أصحابه رحمهم الله ، من أمثال أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وزفر بن الهذيل ومحمد بن زياد اللؤلؤي والقاضي الكندي ، أو مجالس الشافعي بمصر مع أصحابه رحمهم الله ، من أمثال البويطي والمزني والحميدي ، ومن قبلهم الحسن بن محمد الزعفراني وأصحابه ببغداد ، حتى أن كتاب « الأم » الواسع كان ثمرة لتلك المحاورات التي رأسها الشافعي ، وليس هو من تأليف الشافعي كباحث متأمل على انفراد ، وقد تلقف الغربيون هذه الطريقة عن المسلمين وطوروها وجنوا نتائجها الجيدة ، حتى أن أطفالهم في المدارس الابتدائية اليوم ليتقنون الحوار ، وبشجاعة ، وربما وقف أحدهم أمام التلفزيون وتكلم بكلام مرتب واضح لا يداخله تلعثم ، في الحين الذي لا يزال بعض الدعاة في الشرق يربون أصحابهم على السماع المجرد ، ويكون التلميذ الدعوي أمامهم كأنه وعاء يجهدون أنفسهم على صب كم هائل من المعلومات فيه وهوصامت مراقب فحسب ، فكأنه قرص كومبيوتر يتم ملؤه ، وأنّى للقرص أن يتناوش الاجتهاد من مكان بعيد ؟ .

أهلٌ .... بسابقهم الغرباء :ـ

لكن منافع المحاورات ، ومسوغات تجاوز التدرج في المحيط الدعوي لا تنفي حصول فوضى مشهودة تعدت كلمات المعلمين خلالها حتى المقادير الدنيا الواجبة من التدرج ، وتحررت من ضوابط تجاوز التدرج ، فأضرت ، ولو كانت قائمة على اجتهاد لجازت ، ولكنها لم تنتسب لأحد المذهبين ، ولم تصدر عن نظر وقصد وعمد وذوق وفراسة ، وإنما هي مجرد ارتجال وإهمال فيهما غفلة عن المعايير المنهجية التي تستند إليها الآراء المتعاكسة في التدرج أو عدمه .

وساعد على هذه الظاهرة بوجه خاص ما شاع في المؤتمرات الطلابية الإسلامية المقامة في أوروبا وأميركا من دعوة كبار الكتاب والمفكرين والقادة للكلام أمام جمهور عريض من السامعين ، أكثرهم من المبتدئين وصغار الشباب الذين يليق لهم الكلام العاطفي وحديث الحماسة أكثر مما يليق لهم كلام المفكرين والقادة الذين ربما لا يجيدون الخطابة والألفاظ الرنانة كإجادتهم للمحاضرة والتدريس وطرح القضايا ذات العمق ، وقد يضطرهم شعار المؤتمر إلى تناول أبعاد تخطيطية أو إيراد نقد شمولي بمستوى أرفع من إدراك أكثر المشاركين .

وصحافتنا الإسلامية مسؤولة هي الأخرى أيضاً عن تسبيب هذه

الظاهرة ، إذ أننا بسبب ضمور الحرية في إصدار الصحف : انعدمت في أوساطنا الصحافة المتخصصة ، فليست هناك صحف خاصة للسياسة ، ولا للفكر ، ولا للشباب ، ولا للأطفال ، ولا للنساء ، وإنما هي صحف قلائل نادرة تحاول أن ترضي كل الاهتمامات والمستويات والأذواق معاً ، فيطلع الشاب والمستجد على كثير من الكلام الذي يتجاوز مرحلته الابتدائية فينشأ عنده الفضول والخوض المبكر فيما يستحسن أن يمسك عن الكلام فيه ، ومباحث مجلتي المجتمع والأمة شاهدة على ذلك .

وموجة كتب (أين الخلل) و(النقد الذاتى) و (المذكرات) زادت رقعة الفضول اتساعاً وأصبح ابن البارحة الذي يحبو يعتلي المنابر ليعظ القادة ، ويصول في (التأصيل) ، ويجول في (الشورى) ، ووقع أناس فى الخلل إذ هم يبحثون عن الخلل ليبرأوا منه ، وأصبحت الشورى مشجباً تعلق عليه نطلعات النفس ذات الأخلاط .

الحيثيات المتضادة في ربانية التعليم :

والموقف إزاء هذه الظاهرة يمكن أن ينقسم إلى موقفين ، ولكل موقف سلبياته وإيجابياته ، ويمازج صوابهما التكدير .

فقد يصح أن نستقبل هذه الظاهرة بشيء من البرود واللامبالاة ، وندعها تمر ، ونترك المتكلمين في المؤتمرات

والصحف والمذكرات ليتكلموا على رسلهم ، وبكلمات كبار فيها نقد وتقعيد وتخطيط والسبب في ذلك رؤية حيوية قدرية أقنعت المربين بأن الموفق هو من وفقه الله تعالى ، بذكاء يخلقه فيه ابتداء ، وبنفس زكية سوية ، وشخصية قوية ، أو بتيسير في يومياته من بعد خلقه ، من صحة وعافية ، ومال يرفعه عن حد الفقر الموسوس ، وزوجة صالحة تسره عشرتها ، وأمثال ذلك ، وهذه العناصر بمثل هذه التوفيقات ينفعها هذا الكلام العالي ، ويصعب حصر ذوات هؤلاء وإحصاؤهم لنحتكر لهم الحديث ، ولذلك نتكلم للجميع ، فمن كان موفقاً انتفع ونفع الدعوة وصار ضمن الجيل الجديد الوارث لنظرات المعلمين المتكلمين ، المطبق لها ، وازداد تنمية لفكره بما يبدع ، وأما الذين يسمعون ولا ينتفعون فلسنا نبتئس لسماعهم ، فإنهم إما أن ينسوا ما سمعوا ، وهذا خير أحوالهم وأحسنها ، أو يكون منهم الفضول والتدخل فيما لا يعنيهم في سلسلة من الأذواق السيئة التي تنتهي بهم إلى خارج الدعوة ، وكأن قدر الخير هو الذى جعلهم يتخلفون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم سماع المنتفع الذى يتلمس طريق العمل ، فيثبت ويزداد رسوخا .

وقد يصح ـ فى رأي آخر ـ أن نستقبل هذة الظاهرة بنوع من التخوف والحذر ، فلا نتكلم بأصول وموازين ، وغير ذلك من كبار العلم في المجالات العامة ، خوفاً أن نفسد فطرة المبتدئين ، ونساعد

على تأسيس الفضول ، فنكون السبب فى إتلاف كثير من شباب الدعوة من حيث لا نشعر ، وتكون هذه العناصر ضحية خطأ تربوي يرتكبه القادة والمفكرون بتحديثهم هؤلاء أحاديث لا تبلغها عقولهم ، فتكون فتنة لهم .

ولكل من الرأيين وجاهته وحيثياته المقنعة ، ويبدو ــ والله أعلم ــ أن القول النسبي في ذلك أصح ، بحيث نلجأ إلى أحد الرأيين حسب الظروف المحيطة بالدعوة ، إن كانت شديدة ذات محن ، أو أوقات يسر ، وبحسب سعة الجيل السامع الجديد ، إن كان ضخماً يحتمل النحت منه من أجل انتقاء الأشداء الأذكياء ، مثل جيل الصحوة الحاضر ، أم هو جيل محدود تحتاج حتى أصحاب النقص من أبنائه ، وأيضاً بحسب المجموعة القيادية ، إن كانت كبيرة ومتحدة ومنسجمة الفكر ، أم هي صغيرة وتعيش حالة تباين في الاجتهاد ، وعندئذ نحذر أن يستقوي أصحاب أحد الاجتهادات بشباب جدد يلفّونهم لفاً من حيث لا يدركون ، فيكون سواد واسع يؤيد اجتهادهم في الظاهر بينما هو في الحقيقة سراب فكري وتخطيطي لا يستند إلى أركان متينة ولا صورة واقعية ، لبدائية مؤيدي هذا الاجتهاد وكونهم مجرد مقلدين .

والتأمل الطويل في أوصاف المرحلة الدعوية الراهنة تجعلنا نميل

إلى تفضيل الرأي الأول الذي نتكلم فيه بكبار العلم حتى ولو كان ذلك في المؤتمرات والصحف والكتب المنشورة ، مع ما يخالط ذلك من سلبيات أكيدة ، إذا أن نظرة الترجيح بين المصالح والمفاسد تجوّز لنا ذلك من حيث المبدأ ، ولا تشترط لتصرفاتنا أن تكون مجموعة مصالح محضة ؛ وإنما نعمل بالمصلحة الراجحة وإن مازجها شيء من المضرة أقل منها ، ففتنة الفضوليين حاصلة بشكل أكيد ، ولكن تربية جيل جديد بأفق واسع وعلى سنن الإبداع والفهم الحضاري تشكل مصلحة أكبر .

كلمات التقوى وصفات المرونة : مصاعد الاجتهاد

ولكن نضبط هذا الانفتاح فى الكلام بشروط منها :

(الشرط الأول) :

أن يكون كلام الرقائق مشاعاً في أوساط الدعاة ، بحيث تميل المواعظ وأحاديث الأخلاق الإيمانية بالداعية إلى التواضع والأدب في التعامل واحترام المقابل وعفة اللسان إذا أغرته أحاديث الأصول والقواعد بإبداء نقد أو التقدم بين يدى أساتذته .

(الشرط الثانى) :

أن يرافق ذلك سعي لشرح النظرية السياسية الإسلامية وأبعادها ، لأن المعاني الكلية والتعميمات إذا لم يفهمها الداعية

جيداً وأخذها على ظاهرها فلربما يذهب في التأول بعيداً ، ويميل إلى الإطلاق والأحكام الحادة فينفي بقواعد الجهاد احتمالات الهدنة ، ويلغي بموازين الاستقلال مناورات التحالف ، ويستعلي بأحاديث العزة والصبر على إفتاء الضرورات ، بينما تمده النظرية السياسية الإسلامية الشاملة بعقلانية وتوازن مع المحيط ، وتجعله احفظ للدماء ، والأموال والأعراض ، وأحرص على تقليل الثمن الواجب عليه دفعه وتهبه من المرونة ما يتملص به من المحاصرات ، أو تنفذ به إلي حضور قسمة له فيها نصيب إذ يريدها المنافسون أن تكون ضيزي .

القضاة الفاضلون في دار الأمان :

(الشرط الثالث)

أن تتوافر قدوات كافية في المحيط الدعوي ، من قادة ومربين وعلماء ، يعجلون بالرد والتقويم وإرجاع الأمور إلي نصابها الصحيح إذا اشتط مُغرب فركب شذوذاً ، لأن الاعتماد على الكتابة يسبب تسويفاً وتأخيراً ، ولربما وصلت الصفحات بعد الخراب ، بينما يؤدى الاستدراك السريع من القدوات النازلة إلى ميدان المخالطة دوره بشكل آكد ، فإن لم ينفع لفظ ، نفع آخر ، وإن انغلق معنى ، فتحه تمثيل ، وإذا أشكل قياس ، أظهره تعليل ، نقداً ، يداً بيد ، هاءً بهاء ، غير نسيئة ولا محال إلى مؤتمر لاحق .

(الشرط الرابع) :

أن لايكون الزمن زمن فتنة وخلاف ، فإن حرص النفوس على حظوظها يجعل بينها وبين الصواب القريب حجاباً ، حيث يغلب على الأفئدة أن تطيع أهويتها ، ومن الخير آنذاك أن نجمد الأفكار ونقطع لسان الأصول والكليات وكبار العلم ، ليتاح مجال للتقوى أن تهمس في الآذان داعية لنفسها ، ولتكون لحروف الإصلاح بين الناس قناة جارية .

في الرواق والركن لا في الساحة :

(الشرط الخامس) :

أن لايكون قصد المفكرين والقادة الكلام بكبار العلم فى المؤتمرات والصحف عن عمد واستمرار يجعلها هي الموطن الطبيعى لهذا النوع من الكلام ، أو الموطن المختار ، وإنما يجعلون ذلك من باب الاستثناء بقصد اكتشاف وإثارة وتشجيع عناصر قوية ذات إبداع ربما لا يصلون لها بطريق الاتصال الخاص ، وأما كثافة ما ينقلونه من كبار العلم مما علمهم الله فيجب أن يكون عبر المدارس القيادية والمجالس المنهجية المتكررة ، ليتم الشرح بأوفر ما يكون البيان ، وليكون الحوار المباشر المستخرج من قلب الأستاذ لما لم يكن قد زوّره سلفاً من المعاني والإرشادات .

(الشرط السادس) :

أن يشدد في تعليم الفروع وصغار العلم أيام مراهقة العمل الدعوي في بلد ما ، فكل عمل يمر بمرحلة المراهقة هذه ، بعد اكتمال تأسيسه وقبل توسعه وانفتاحه ، وهي ذات ظواهر نفسية تعتري المجموعة تشابه إلى حد كبير طباع الفتى المراهق ، من تقلب الرأي ، والعناد ، والإغراب ، والجنوح إلي الخيال ، وحب المغامرة ، وكراهية الرقابة ، فإذا جاءت المباحث العالية وحقائق العلم الكبيرة في أيام المراهقة الحركية هذه فإن المجموعة يمكن أن تنحرف بها إلى جدل طويل يصاحبه اختلاط الأصوات ، أو تجنح به إلى اجتهادات شاذة ينكرها عرف الفقهاء المجربين ، ولكن يكون تداول كبار العلم بعد مرحلة المراهقة هذه ، إذ تهدأ النفوس ، وتميل إلى العقلانية ، وتشعر بضرورة الواقعية ، وعندئذ يؤتى تعليمها نتيجته المرجوة ، ويساعد على تفجّر الإبداع الشخصي لدى أذكياء الدعاة . ومثل هذا التعليم في المرحلة المتقدمة يفترض أن يقوم به جيل من المتعلمين تربى على كبار العلم من قبل في مرحلة التأسيس من خلال دورات خاصة ورعاية مكثفة .

والمنهجية .... دوماً

(الشرط السابع) :

والالتزام بالمنهجية في العمل والموضوعية في الفكر تعصم من الانحراف ، فإذا شاعت مجموعة من المبادئ المنهجية ، والأعراف الصحيحة ، والموازين الدقيقة في مجموعة الدعاة : ولدت كبحاً للفهم الخاطئ ، وبها نمنع تسرب التفاسير المشوشة ، والتأويلات المفرطة البعيدة ، وبذلك تظل الأجواء نظيفة دائما ، وتعمل القواعد المنهجية والأعراف التنظيمية كمرشحات تحول دون سلبيات الانفتاح ، وخصوصاً إذا أضيف إلى ذلك إشاعة مفاهيم أدب الحوار ، وأخلاق المناظرة ، واعتاد عليها الدعاة من خلال الممارسة والتطبيق ، مما يجعل الشطط دائماً يحصر في أضيق الدوائر .

كوابح ... تمنع التصدر

(الشرط الثامن) :

وكلما كانت شروط التوثيق وقواعد الانتقاء أكثر وضوحاً فى محيط الجماعة ، والضوابط الحازمة أشد سيطرة : كلما قلت سلبيات تعليم كبار العلم وكلياته ، لأن حديث القواعد و الأصول فيه بلاغة وجمال صياغة ، وفيه دغدغة لعقول الشباب الأذكياء ، وقد يستغل معلم متطلع إلى مراكز الصدارة هذه الخصائص في

طبيعة هذه القواعد فيستثير بها إعجاب الشباب ، ويصنع له (شلة) موالية ، ويجعل اللذة التي تصاحب كلماته ثمناً يدفعه لإدامة ولاء هؤلاء ، غير ناظرٍ إلى ما يسببه لهم من فتنة بحديث فوق مستواهم ، حتي لكأنه فيلسوف يديم انشداد الناس إليه بغموضه وتمتماته المبهمة ، بينما يؤسس فقه التوثيق جملة قناعات في نفوس الشباب تمنعهم من السير وراء من لا يملك غير اللسان وتزويق الكلام .

فهذه وأمثالها شروط يرجى أن تتقلص معها سلبيات المباحث الكلية ويجمعها أن نحتاط لأنفسنا ما استطعنا بتعلم صنعة العقلانية فإن فيها الرشاد والاتئاد ، وأما العواطف فصنعة لطالما موّهت بدعة مبتدع فنشرتها أوغلّفت الإغراب فأذاعته ، وكم من فكر كاسد غنّاه شاعر مترنم يعزف على أوتار القلوب فأصبح رائجا .

كانت المتاهة رغم وضوح المعالم الهادية

ويؤكد الظن في لياقة بعض المبتدئين لسماع الأصول والقواعد : مشاهدات حيوية وتاريخية تشير إلى أن فتنة بعض المبتدعة كانت بسبب فهم قاصر لبعض الفروع ، وتنزيلهم لها على غير منازلها ، أو قياسهم عليها قياساً مع الفارق ، ويغنينا عن تتبع الشواهد لهذه الملاحظة في التاريخ الإسلامي القديم ما شاهدناه ،

وما زال خبره حياً فينا من وهم التكفير لدى بعض الشباب المتحمس الصادق التوجه بلا شك ، فإن ظاهر النصوص المفردة الفرعية الجزئية في أبواب الردة والكفر هي التي تسببت في شطحاته ومذاهبه القاصية عن مقاصد أهل السنّة والجماعة ، ولذلك كان رد من رد بدعتهم مغتمداً على الأصول والقواعد بشكل مكثف ، وجاء مثل رد الشيخ القرضاوى في نقض التطرف مفهوماً مع أن قلمه جال في ذروة الفقه وحام حول أعلاه ، وكذلك كانت الأصول العشرين من قبل ، مما يمنحنا قناعة بأن الأمر يتعدى مجرد الأسلوب التقليدي في دراسة صغار العلم وجزئياته قبل كباره وكلياته ، وأن طرق التدريس ومناورات الكتابة إذا كانت ماهرة واستوعبت أطراف المعاني فإن عظام المسائل وضخامها تلين قناتها وتصبح سلسلة مفهومة ، ولا تستلزم هذه القناعة ادعاء هدر العلم الجزئي تماماً والبدء بتداول الكليات دون سابق أية معرفة بجزئيات الأحكام ، كما لا يستقيم الاعتراض على هذه القناعة بمثل هذا الإلزام لما لايلزم ، بل قلّ أن يوجد داعية يرتاد المساجد ويسمع خطب الجمعة والمواعظ على مثل هذه الدرجة من التعرّي والتبرّى من علم الجزئيات ، ولكن قناعتنا تفهم بالحسنى ، وبالحدود الوسطى ، وهى تأكيد لعدم الإسراف فى تدريس الجزئيات والمقدمات أكثر مما هي محاولة تجاوز وهجر لها.

عطاء التفاعل الحضاري يعين على الاجتهاد

وتتيسر محاولات تفهيم الكليات وأمهات المسائل هذه الأيام بوجود ظاهرة (التفاعل الحضاري) في المجتمعات الحديثة ، فإن معظم دعاة الإسلام من جيل الصحوة والذين من قبلهم هم من المثقفين الذين يحيون حياة عصرية فيها قراءة للصحف اليومية ومشاهدة للبرامج التلفزيونية ، فوق ما حازه أكثرهم من دراسة جامعية وعليا ، وهذه الدراسات والسماعات والمشاهدات لها تأثير مباشر ودور مكثف في صياغة عقلية الداعية ومفاهيمه العامة وأذواقه كفرد في المجتمع ، بغض النظر عن صفته الدعوية ، ويصبح بوجود هذه التأثيرات صاحب استعداد جيد لاستقبال علم القواعد والنتائج والأصول وفهمه بسرعة ، وبشكل قد يعجز عنه الطالب الذي يحيا حياة بدائية ، أو الذي اختار له أستاذه أو اختار لنفسه العزلة اليابسة التى تنحرف بمزاجه وأذواقه ، وكأن أكثر الكلام المنقول عن الفقهاء فى ضرورة التدرج فى التدريس وتقديم الجزئيات على الكليات كان يراعى مَن هم على هذا النمط فى اليبوسة والعزلة المنتجة للسذاجة والبساطة .

إن إيماء المعادلات الرياضية لدارس الرياضيات ــ كمثل من أمثلة التفاعل الحضاري ــ هو إيماء قوي جداً ، يغرس في أصل عقل الدارس وفي لاشعوره معانى التعادل والتوازن والتساوي المطلق أو

التساوى النسبي ، فى معاني أخرى هي نفسها مرتكزات لكثير من القواعد الفقهية ، بحيث يتلقف الداعية الرياضي هذه القواعد حين روايتها له بسهولة ويسر ، نتيجة الخلفية الذهنية المساعدة التي يملكها .

والداعية الكثير النظر للأشكال الهندسية ، وما فيها من تناظر أو تدرج في الأطوال ، أو تميّز بحدود حادة ، أو تجاور للمساحات الصمّاء وذوات الثغرات ، وأمثال ذلك : هو داعية طريقه ممهد لمرور معاني الفقه في التدرج والاستثناء والفروق والشروط ، بالتوطئة التى صنعتها الهندسة .

وداعية آخر أطال استمتاعه بجدول الألوان وما ينسجم منها وما يتنافر ، ومرّت عينه على موازين الجمال الفني : هو داعية أسرع إحاطة بما فى النتائج الفقهية من منطق متجانس صحيح .

وهل إيحاء معني التكامل والتصاعد أقل منه لدى دارس الكيمياء الذي يحيط علماً بالجدول الدوري للعناصر ، ويعرف خبر ما يفعله كل بروتون يضاف لنواة الذرة من خصائص جديدة ؟

وهذه أمثلة فحسب لما عسى أن يسببه التفاعل الحضاري وتناول العلوم التطبيقية و الفنون من توسيع للآفاق وتفتيح للأذهان

يسهل معهما التفهيم الفقهى ، والداعية اليوم إن لم يكن جامعياً فهو مشاهد للتلفزيون ، قارئ للصحف ، وحائز من مطالعاته ومشاهداته لنصف العلم ، ثم هو سائح في مدن وطنه أومدن العالم يرى نتاج المهندسين والفنانين مع كل نظرة وإن لم تكن عامدة ، فتنطبع في لاشعوره الموازين والظواهر الحيوية الممهدة لاستقرار الموازين الشرعية .

الجمال ... وغرام العقل

وأما مَن لا يحيا حياة العلوم وانعزل في قرية بين الخضرة والجبال والطير فليس هو بأقل من صاحب التفاعل الحضارى ، فإن هذا ترق أحاسيسه ويحدث له ما يحدث للشعراء من إرهافٍ والتذاذٍ بالجمال ، فتزكو نفسه ، وتتزن ، وتطمئن ، حتى تكون سكينتها هى الممهدة لقواعد الفقه الكبيرة ، وله مع لون وشكل كل وردة خلقها الله تعالى وتلمسها أنامله وتقبّلها شفته وينطبع خيالها في شغاف قلبه : قُبلة عقلية أخرى لميزان من موازين الفقه ، وإطلالة على الاجتهاد .

لكن المحروم هو من حرم هذا وهذا ، فعاش في عزلة عن الحضارة والمدنية ، وعن آيات الله في الآفاق ، وهو من سَجَن نفسه بين الجدران حتي يخشوشن طبعه ويتبلد عقله ، أو حبسه أستاذه

في مدرسته وجعل له من وظيفة حفظ الحواشي ما يطيل معه حنى ظهره ، ولمثل هذا كانت وصايا تدريس علم الجزئيات قبل الكليات .

قلوبٌ أمم ..

ولايظنن ظان أن هذا النمط من تأثير التفاعل الحضاري أو الروح الشاعرية إنما هو وليد عصرنا الراهن ، بل هو قديم ضارب في القدم ، ولذلك كان علماء بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأمثالهم أوعى من علماء النواحي القصية ، لتفاعلهم مع معطيات الحضارة الإسلامية التي كانت عامرة في هذه العواصم ، ولذلك أيضاً كان شعراء الإيمان في تاريخ الإسلام أصحاب مهارة في فقه النفوس ووصف خصائصها وأحوالها ، لانعكاسات الحياة الجمالية التي عاشوها مع الشجر وترقرق الماء ، حتى أن الواحد منهم ليُعَدّ مؤسسة ثقافية شاملة لوحده بما يحوز من أحاسيس وخواطر يصطادها ، وتأملات في حوادث الدهور ينتبه لها ، ورؤي تاريخية ، ولغة ثرية ، وربما يكون أحدهم مُقِلاً لم يترك غير قصائد قلائل أو قطعاً متناثرة ، لكنها تشكل اكتشافات لسنن الفطرة هي في أصول الذوق وأصول حركات القلب أخوات أصول فقه المعاملات .

ربانية التعليم قضية منهجية خططية

ونظراً لهذه الحقائق من تأثير التفاعل الحضاري أو الجمالى في الصياغة العقلية والنفسية للمتفقه فإن على التربية الدعوية إذا أرادت لمتدربيها إتقان صنعة الاجتهاد الإبداعي أن تنحى منحي دفع الدعاة ـ وفق منهج متكامل ـ للعيش في البيئة الحضارية العلمية ، والتعامل معها ، والاستلال منها مع ما يكملها من سياحة وتعرّف على خلاصة عقول وعلوم وفنون البشر عبر آلاف السنين ، المعروضة في دور الوثائق والمتاحف والأماكن المصانة ، ثم فى مطالعة صفحات جمال ما خلق الله في البراري والبحار ، أو تكثيف مطالعة الخطوط السود في الصفحات البيض مما سطرته أنامل كل إنسان ، من أدب شعري ونثري فيه رمز وخيال وعاطفيات وانتقاء ألفاظ ، أو تاريخ يكشف الحقائق ويحلل دروس الحياة ويقابل بين قبح الظلم وإشراق العدل ،أو وصف يعين على تصور البعيد ومعرفة ما غاب ، أو فقه لغات يطور الاشتقاقَ الذي فيه إلى مهارةٍ في قياس الأحكام .

إن قضية (تداخل) صغار العلم وكباره ، أو تسلسلهما ، ليست هي مجرد وصية تقدم إلى المعلمين ترجوهم أن يتقنوا فن التربية وفق معيارها ، فمنهم متقن وقليل إتقان ، وإنما هي ـ في وجهها الأهم ـ قضية منهجية عميقة ينبغي أن يحكمها التخطيط

التربوى بعيد المدى ، وعلى المنهج الجماعى أن يراعيها ويضع جداول عملية تطبيقية لتبليغ وتفهيم الثوابت الموازين والأصول والقواعد لعموم الدعاة بعد إحصائها وتصنيفها نوعياً ، وكذلك الفروع ومفردات الأحكام ، لكل طبقة ما يوازي حاجتها ومقدار استيعابها ، ويستعين بلمسات منهجية متناسقة مع اختياراته يلزم بها المجلات الدعوية ، ويطلب من اللجان والأجهزة المركزية أن تنسجم نشرياتها وأساليب كتابتها مع تلك الاختيارات أيضا ، ثم بأن يتضمن المنهج ما نتمناه للداعية من ذاك الحضور في البيئة الحضارية ، والسياحة ، ونيل الثقافة العامة ، والعيش التأملى مع جمال الخليقة ومع آيات الله في الآفاق العريضة ، يتعنى لأقصاها ، ويتغنى ـ مثل داود عليه السلام ـ مع تسبيحات الجبال والطير....
ثم يكون آخر دعائه أن : الحمد لله رب العالمين .



الفهرست

عيون الأعيان

إن دعاة الإسلام هم أعيان الجيل الحاضر ، لا جدال ، بما وُهبوا من همة تحرص على الإصلاح ، وتجرد يعيد ضرب المثال .

ولهم تصدر هذه السلسلة ..

فلهم مع كل إشراقة جديدة .. تحيـــة ...

إن هدف « رسائل العين » يتركز في كشف الآفاق الرحبة لفقه الدعوة ، وتجارب العمل الإسلامي ، وأنماط معاناة المربين ، ووضع كـل ذلك بين يدي شباب الصحوة الإسلامية ، تعليماً لهم ، وتمكيناً .

لكن الأبعاد الحضارية مكملة لكل ذلك ، لأنا نعيش حياة الانفتاح من جهة ، ونواجه حضارة مغايرة تَتَدسّس بهدوء ولباقة أو تجاهر بالغزو ، من جهة أخرى ، فكان لابد للداعية المسلم أن يسعى نحو الثقافة الشمولية ، وأنواع العلوم والفنون ، ليعلو فوق التيار ، مسيطراً مهيمناً ، وكان على هذه السلسلة أن ترافقه في دربه الحضاري هذا تعين ، وتستكشف له ، وتُنبيه الخبر ، ووكيلها في ذلـك : محمـد أحمد الراشد ، ينتقي ويختار ، إن لم يكتب ويعقب ، ومعه على قدم سواء : الدكتور عبد الله يوسف الحسن ، يكتب وينقح ويطور ويوسع الدوائر .

على أن الاستقصاء في إيراد كلام الفقهاء ومراجع نصوصهم ليس من وسيلة هذه الرسائل ، وإنما هو الاستئناس والتبرك بأقوال السلف ، ولا نرى أن يلزمنا داعية ما ألزمته الجامعاتُ أصحابَ البحوث ، وإنما نهتم نحن بالتعليل والقياس والتأويل ، مما يوجب على الممارس التأمل في عباراتنا على ضوء واقع العمل الإسلامي ، وأن يدرك المعاني التي نذهب إليها من خلال الإشارات والمجاز .

فقرر أن تكون حَسَن المطالعة والاستيعاب ، بمقابل ما ترجوه منّا من حُسْن الكتابة والاختيار ، وكرِّر المطالعة : يُؤذَن لك بمزيد فهم ، وقدِّم نسخاً أخرى من هذه الرسائل هدية إلى إخوانٍ لك : تنتشر الفوائد ، ويروج مذهبك في الإصلاح ، ويقتنع بمثل قناعاتك عددٌ أوفر ، فتكون النتيجة أقرب ..

ثم سبِّح معنا ربّاً هادياً.... ونصيراً .



